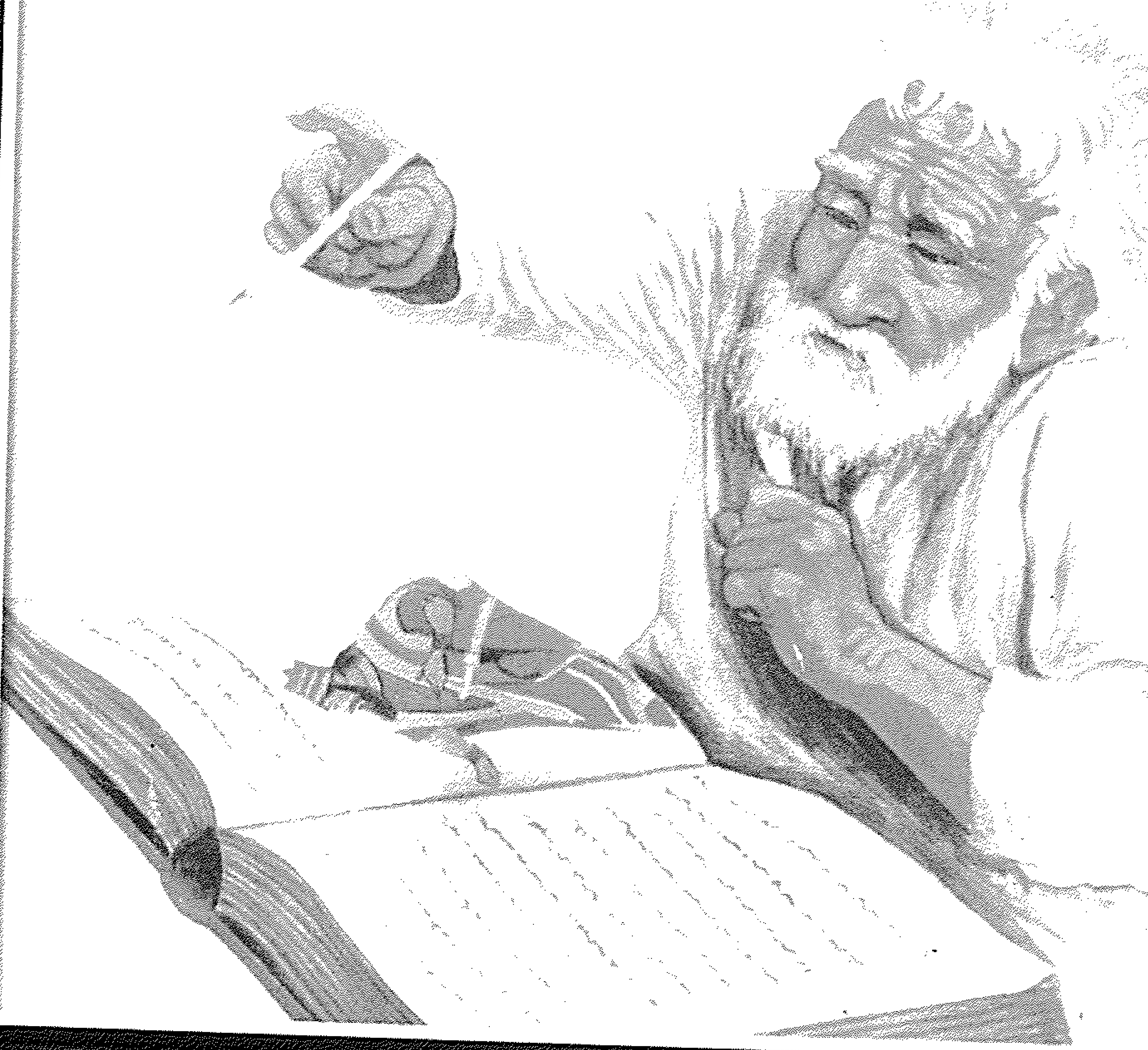
أحلى الحكايات

50 قصة

عربية إسلامية ميسَّرة للأطفال

يحكيها الكبار للصغار أو يقرؤها الأطفال بأنفسهم



ناصف مصطفى عبد العزيز

أحلى الحكايات

50 قصة

عربية إسلامية ميسّرة للأطفال

ناصف مصطفى عبدالعزيز

الدار الثقافية للنشر

عنوان الكتاب : ٥٠ قصة عربية إسلامية ميسرة للأطفال
50 Kessa Arabiah Eslamiah Moyasarah Lilatfal
اسم المؤلف : ناصف مصطفى عبدالعزيز
Nasif Moustafa Abdulazeez
17 x 24 سم . 118 ص.
17 x 24cm. 118 p.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : 5292 / 98
الترقيم الدولى : ISBN: 977-5875-66-2
اسم الناشر : الدار الثقافية للنشر

الطبعة الثالثة

1421 هـ/ 2001 م

الدار الثقافية للنشر - القاهرة


ص.ب 134 بانوراما أكتوبر 11811 - تليفاكس 4027157 - 4172769
Email: sales @thakafia.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يحتوى هذا الكتاب على خمسين من أروع قصص التراث العربية والإسلامية، صيغت بأسلوب ميسَّر حتى يفهمها أطفالنا عندما يسمعونها أو يعتمدون على أنفسهم فى قراءتها واستنباط العبر منها.

ومما تشمله هذه المجموعة القصصية : سيرة الرسول ﷺ والصحابة رضى الله عنهم، والخلفاء والعلماء والقُوّاد. وهى تتضمَّن كذلك طائفة من قصص الأمثال الشائعة وغيرها من القصص التى تزخر بالحِكَم والفضائل، حتى يقتدى بها الأطفال، وتكون نبراسًا لهم فى مستقبل حياتهم.



١- التجارة الرابحة

جاءَتْ ليلةُ العيد، فـقالَت الزَّوْجَةُ لزَوْجِها: «العيدُ غـداً يا أبا عَبْد الله، ولَيْس لَدَى أطفالنا ملابسُ جديدةٌ يَلبَسونَها مثْلَ بَقية أطفال الجيران، وهَذا بسبب إسرافكَ!». قالَ الزوجُ: «أنا أنفقُ أمـوالى فى الخيـر ومُسـاعَدَة المـحتاجـين، وهَذا ليسَ إسـرافًا يا أمَّ عَبدالله». قالتَ الزوجةُ: «ابعَثْ برسالة إلى أحَد أصـدقائكَ المخلصينَ ليُعْطينا بَعْضًا منَ المال، نَرُدُّهُ إليه عنْدَما تَتَحَسَّنُ أحْوالُنا.. إنْ شاءَ اللهُ».

كـانَ لهذا الرَّجُل صَـديقان مُـخْلصان، الـهاشـمي وأسامَـةُ. كَتَبَ الرَّجُلُ رسـالةً. وأعطاها لخادمه، وطَلَبَ منْهُ أنْ يَذْهَبَ بها إلى صَديقه الهاشميِّ.

ذَهَبَ الغُلامُ إلى الهاشـميِّ وأعطاهُ الرِّسالةَ. قَرَأها الهاشميُّ وعَـرفَ أنَّ صَديقَهُ فى ضيق وحاجَـة وأصبَحَ لا يَمْلكُ شيئًا. قـالَ الهاشميُّ للخادم: «أعْـرفُ أنَّ سيِّدكَ يُنْفقُ كُلَّ ما عنْدَهُ منْ أمـوال فى عَمَلِ الخَيْـر. خُذْ هَذَا الكيسَ وَقُلْ لسيِّـدكَ إنَّ هَذه الدَّنانير هى كُلُّ ما أمْلكُ فى لَيْلَة العيد».

عادَ الخادمُ إلى سيِّده وأعطاهُ الكيسَ. فَتَحَ الرَّجُلُ الكيسَ فَوَجَدَ به مائةَ دينار. فَقالَ لزَوجَته فى فَرْحَة: «يا أمَّ عبد الله، هَذه مائةُ دينار قد أرسَلَها اللهُ إلينا». سُرت الزَّوجَةُ وقـالت لزوجـهـا: «أسْـرعْ إلى السُّـوقِ حـتَّى نشْـتَـرىَ الأثوابَ والأحـذيةَ الجـديدةَ لأولادنا».

فى هَذه اللَّحظة دَقَّ البـابُ. فتحَ الرَّجلُ البابَ فَـوَجَدَ خادمَ صَديقـه أسامَةَ ومَـعَهُ رسالةٌ يَطلبُ فـيها بَعضَ المـساعَدَة ليَـدفَعَ دينًا قَدْ حَلَّ مَوْعـدُهُ. أعطى الرَّجُل الخادمَ الكيسَ الذى أرسلهُ إليه صَديـقُهُ الهاشميُّ وَفى داخله المَبْلَغُ كـاملاً دُونَ أنْ يَأخُذَ منْهُ شيْئًا.

ثَارَت الزَّوْجَـةُ عَلَى زَوجِهـا الذى فَضَّلَ صَـديقَهُ عَلَى أولاده، فـقالَ لَهـا زَوْجُهـا:

«صَديقى يَطْلُبُ المُساعَدَةَ .. فَكَيْفَ أمنَعُ عَنهُ ما عِنْدى منْ خَيْرٍ؟!».

مَرَّت ساعةٌ، ثمَّ دَق البَاب. فَتحَ الرَّجُلُ البابَ وَوَجَدَ أمامَهُ صَدِيقَهُ الهاشميَّ فَرَحَّبَ به وأَدخَلَهُ. قالَ الهاشميُّ «جِئتُ لأسألَكَ عَن هَذا الكيس، هَل هُوَ الكيسُ نَفْسُهُ الذى أرسلتَهُ إليكَ مَعَ خَادمكَ وَبداخله المائةُ دينار؟». نَظَرَ الرَّجُلُ إلى الكيسِ وقَالَ فى دَهشَة: «نَعَمْ .. نعَمْ .. إنهُ هُوَ... أخبرنى يا هاشمِى.. كَيفَ وَصَلَ هَذا الكيسُ إلَيْكَ؟».

أجاب الهاشميُّ: «عندما جاءَنى خادمُكَ برسالتكَ، وأعطيتُهُ الكيسَ الذى عندى لمْ يكنْ فى بيتى غَيرُه، فأرسَلتُ إلى صَديقنا أسامَة أطلب المساعَدَةَ.. فَفَاجأنى أسامَةُ بأنّ قدمَ لى الكيسَ الذى أرسلتهُ إليكَ كمَا هُوَ، دَونَ أن يَنْقُص ديناراً واحداً، فَتَعَجبتُ وَجئتُ إليكَ لأعرفَ السِّرَّ». ضَحكَ الرَّجُلُ وَقَالَ: «لقد فضَّلكَ أسامَةُ عَلى نَفسه وأعطاك الكيسَ، كما فَضلتَنى أنتَ عَلى نَفسكَ يا هاشميّ. ابتسَمَ الهاشميُّ وقال: «بل أنتَ الذى فَضَّلتَ أسامَةَ عَلَى نَفْسكَ وَعِيالكَ، ما رَأيُكَ يا أبا عَبدالله فى أنْ نَقتَسم المائة دينار بَيننا نحنُ الثلاثَة؟!».

أجابَ الرَّجُلُ: «بارَكَ اللهُ فيكَ يا هاشميّ!».

سَمِعَ الخَليفَةُ بِهذه الحكايَة، فأمَرَ لِكُلِّ واحد منَ الأصدقاء الثلاثَة بألف دينار.

عندئذ دَخَلَ الرَّجُلُ عَلى زوجته وَفى يَده الدَّنانيرُ الألفُ وقَالَ فى فَرَحٍ: «ما رَأيُك - يا أمَّ عَبد الله - هَلْ ضَيَّعَنا اللهُ؟». قالت المَرأةُ: «لا والله، ما ضَيَّعَنا، بَلْ زادَنا رزقًا!». فقَالَ الرَّجُلُ: «عَرَفت الآنَ - يا زوجتى - أنَّ الإنفاقَ فى سَبيلِ الله تجارةٌ رابحةٌ لا تَخْسَرُ أبدًا؟!».

٢- فراس والناقة ووليدها

فـراسٌ صَبى صَـغـيـرٌ يَرْعى جمـالَ القَـبـيلَة. كلَّ يَومْ يأخُـذُ الجمـالَ والناقَـةَ إلَى المراعى، وَهُناكَ يتـركُها تَرعَـى منَ العُشْب والحشـائش الخَضراء، وتَشْـرَبُ مِنْ ماء العُيونِ والآبارِ التى فى الوادِى، ثُمَّ يَعودُ بِها فى المَساء.

وكانَتْ أمُّ فـراسٍ تَأخُذُ الناقَةَ وراءَ الخيـام، وتَرجعُ بَعْدَ لحظات تَحملُ إناءً كـبيراً منَ الحَليب، وتقولُ لابنها: «شُكراً لَكَ يا فراس.. اختَـرْتَ اليَوم مَرْعًى جَيِّدًا، وَاكَلَتِ الجِمالُ والناقَة منَ العُشْبِ الأخْضَرِ حتّى شَبِعَت.. كُنْتَ بحقٍّ راعياً طَيِّبا يا فراس!».

وفى بَعضِ الأحـيانِ كـانَ فـراسٌ يَكْسَلُ عن المَـشى الطَّويل، ولا يأخُـذُ الجمـالَ والناقَةَ إلَى الوادى البَعيدِ الذى به العُشْبُ والمـاءُ، ويَربطُها إلى نَخْلة قريبة، ثم يجرِى ويلعَبُ مَعَ أصحابـه، وعندمَا يَعودُ فى المساء تأخـذُ أمُّهُ الناقَةَ كالعـادَة خَلْفَ الخيامِ، ثُمَّ تَرجِعُ ومَعَها إناءُ اللَّبَن، وتَصيحُ فى ابنها غاضبةً: «فراس.. لقد كُنتَ اليومَ تَلعَبُ ، ولَمْ ترعَ الجِمالَ والنَّاقةَ كما يَجبُ... أنتَ مُهملٌ - يا فِراس - وتَستَحقُّ العقاب».

كانَ فراسٌ يَحْزَنُ لغَـضَب أمّه، وكانَ يُفَكِّرُ كثيراً ويقولُ لنَفْـسه: «كيفَ تَعرفُ أمّى الحـقيـقةَ دائـما؟ كُلَّ يومٍ تأخُـذُ الناقـةَ خَلْفَ الخيـام، وتَبـقَى مَعَـهـا قَليلاً، ثم تعـودُ لتَشـكُرنى أوْ لتَلومنَى وتعاتبَنى... لا بُدَّ أنَّ فـى الأمر سراً.. لَيـس هُناكَ غَيْرُ الـناقَة... فَهِىَ الَّتى تَحكى لأمِّى كلَّ شَىء، وتُخْـبِرها كُلَّ يَوْمٍ بما فَـعَلْتُ... لكنْ!.. هَلْ تَعْرِفُ أمّى لُغَةَ الناقة حقاً؟ إنَّ هذا أمْرٌ عَجيب..!».

ولَمْ يَكُنْ فراسٌ يَسكُتُ.. بَلْ كانَ ينتَقمُ منَ الناقَة، فهوَ يَـعْرِفُ جيِّدًا ما يضايقها .. كانَ فِراسٌ يُخْـفى عَنِ النَّاقَة وليدَها الجَمَلَ الصَّـغير... فَتَحزنُ النّـاقَةُ وتَبكى، وتَمتنعُ عَنِ الطّعام.. إلى أنْ يُعيدَ إليها ابنَها.

ذاتَ يومٍ .. جاءَ ضيوف مِنْ قَبيلةٍ أخرَى، وأرادَ أبو فِراسٍ أنْ يُكْرِمَهُم. نادَى الأبُ

فراسًـا، وطَلَبَ منهُ أنْ يَذهَبَ ويُحضِـرَ الجَمَلَ الصغـير ابنَ الناقـة ليذبحُوهُ ويُطعِـموا الضيوفَ. حَزِنَ فراسٌ وبَكَى بِشدّة، وقـال لأبيه: «لا - يا أبى - اترُكِ الجَمَلَ الصغيرَ، فأنا أحِبُّهُ ولا يُمكننى أنْ أستَغنى عَنْهُ. اذبح أمَّهُ الناقَةَ بَدَلاً منْهُ... فهِىَ تَستَحِقُّ الذَّبحَ. لأنها تُخبِرُ أمّى كُلَّ يومٍ بما أعملُ لِتُعاقِبنى».

سَمِعَت الأمُّ كَـلام ابنِها، وقالت لَهُ وَهِىَ تَضمُّهُ إلى صـدرها: «لا يا بُنَى.. الناقةُ لا تقولُ لى شيئا، ولكنّى أعرفُ الحقيقة منْ لَبَنها، فإن أنتَ رَعَيْتَها جيداً، وسرتَ بها إلى الوادى حيثُ العُشبُ الطرىُّ والحشائشُ الخضراءُ امتـلأ ضَرعُها وأعطتنا حليباً كثيراً، أمـا إذا أهملتهـا وكسلتَ، وفـضلتَ اللعب معَ أصـحابـك وتركتَ الناقةَ بلاَ مَـرعَى، عـادت إلى بحليب قليل... هَل فَـهِـمتَ الآنَ - يا بُنىّ - كـيف أعرفُ مـا تفـعلُهُ كلَّ يومٍ؟!».

ابتسَمَ فراسٌ وقـالَ: «ما أظلَمَنى!! لَقَد كُنتُ أسيءُ معامَـلةَ الناقَة طَوالَ هَذه المُدَّة واتهمـتها بالبـاطل!!». فقال الأب: «والآنَ.. أسـرع يا بُنىّ، وأحضِر الجَـمَلَ الصغـيرَ حتى نَذبَحَهُ ونُطعِمَ ضيوفَنا، وإن شاء اللهُ، فَسَوفَ تَلِدُ لَكَ الناقةُ جَمَلاً صَغيراً أجْمَلَ منْهُ».

كانَ فراسٌ يَـتألَّمُ وَهُوَ يَسوقُ الجَمَلَ الصَّـغيرَ إلى أبيه، لَكنَّهُ كـانَ يُدرِكُ كَذَلك أنَّ إكرامَ الضَّيفِ واجبٌ، وأنَّ قَبيلَتَهُ يَنبَغى أنْ تَظَلَّ رافِعَةَ الرأسِ بَينَ جاراتِها القبائلِ.

٣- الملك والصياد

قَالَ الملكُ لِوَزِيرِهِ ذاتَ يَومٍ: «تـعَالَ مَعى نَرَ أحوالَ الـناسِ والبِلاد». ركبَ المَلِكُ حصانَهُ الأسْوَدَ، وركبَ الوزيرُ حصـانَهُ الأبيضَ. سارَ المَلِكُ والوَزيرُ حتَّى قابَلا أحدَ الصَّيادين.. كانَ شَيْخًا كَبيرَ السِّنِّ، يَلْبَسُ ثياباً قَديمةً، ويَجْمَعُ شَبَكَتَهُ بعْدَ الصَّيْد.

قـالَ الملكُ لوزيرِه: «تَمـهَّل حـتَّى نرى هَذا الرَّجُلَ.» اقْـتـرَبَ الملكُ مِنَ الصَّـيّـادِ وَحَيّاه، وَسَألَهُ وَهُوَ ما يَزالُ راكباً حِصانَهُ:

« يا صيّادُ .. كَيْفَ البَعيدُ؟ ».

أجابَ الصَّيّادُ : « صارَ قَريبًا ».

سَألَ المَلِكُ : «وكَيْفَ الجماعةُ ؟ ».

أجابَ الصيادُ : «صارَتْ مُتَفَرِّقَةً ».

سألَ المَلِكُ : «والاثْنَتان ؟ ».

أجابَ الصَّيّادُ: « صارَتا ثَلاثَةً ».

قالَ الملك : « يا صَيَّادُ .. لا تَبِعْ رَخيصاً ».

قال الصَّيّادُ : «لا تُوصِ حَرِيصاً ».

سُرَّ المَلِكُ مِنْ إجابات الصَّيَّادِ. وَحَيَّاهُ ، ثُمَّ انْصَرَفَ مَعَ وَزيرِهِ إلى القَصْر.

سَألَ الملكُ الوَزير:

«هَلْ فَهِمْتَ – يا وزيرى – ما دَارَ بَيني وبَيْنَ ذَلِكَ الصَّيَّادِ؟». ابتَسَمَ الوزيرُ وقال:

« إنْ أردْتَ الحقَّ - يا مَوْلاىَ الملِك - فـأنا لَمْ أفْهَمْ كَلِمَةً واحِدةً ممّـا دارَ بيْنَكُما ... فَما البَعيدُ الذى صَارَ قريباً؟.

وما الجمَاعةُ الَّتى صارَتْ متفرِّقةً ؟.

وما الاثنتانِ الَّلتان صَارتا ثلاثةً ؟».

قالَ الملِكُ: «سَأمْـهِلُكَ حتَّى المساءِ لِتُفَـسِّرَ لى هَذا الكَلام.. وإلاَّ فإنَّكَ لَنْ تَصلحَ أن تكونَ وَزيرى بَعدَ الآن».

أسرَعَ الوَزيرُ بحِـصانِه الأبيضِ إلى مكانِ الصَّـياد، فوجَـدَهُ ما يَزالُ يَغسلُ شَـبكَتَهُ، ويَلُمُّها ليـرحَلَ. قالَ الوزيرُ: «انتظرْ أيُّها الصيادُ.. مَاذا كُنتَ تَقُـولُ للملكِ؟ ومَاذا كانَ الملكُ يقولُ لكَ؟».

قال الصَّيادُ: « ما تَطلُبُهُ غالٍ ».

قال الوزير: «وأنَا مستعدٌّ أنْ أدفعَ الثمنَ الذى تطلبُه».

قال الصيَّادُ: « الثَّمَنُ حصانُكَ الأبيضُ » .

قال الوزيرُ : « هوُ لكَ لَو فَسَّرتَ لِى الكَلامَ».

وقال الوزيرُ : «سَألَكَ الملكُ: كَيفَ البَعيدُ؟ فَأجَبْتَ :صارَ قريبًا».

قال الصيادُ : « سَألَنى عن نَظرى.. فَأجبتُ صارَ قريبًا.. أىْ ضَعُفَ.. فَبَعْدَ أنْ كُنتُ أرَى البَعيدَ صِرتُ لا أرَى إلاَّ القَريبَ ».

قالَ الوَزيرُ : «وَسَألَكَ عَن الجَماعَةِ، فَقُلتَ صَارتْ مُتَفَرِّقَةً. فما مَعْنَى ذَلكَ؟».

قالَ الصَّيَّادُ : «سألَنى عَن أسْنانى، فَقُلتُ صارتْ مُتَفَرِّقَةً، أىْ تَخلَّعَتْ وتَفرَّقَتْ».

قالَ الوزيرُ : «وَسَألَكَ عَنِ الاثنتَيْن، فَقُلتَ صارَتَا ثَلاثَةً».

قالَ الصّيادُ : «سَألنى الملكُ عنْ رجْلىَّ كيفَ حالُها بَعدَ أنْ صرْتُ شيْخًا كَبيرَ السِّنِّ، فَأجَبْتُهُ صارَتا ثَلاثاً، أىْ رِجلَىَّ والعَصَا.. فأنا كَما تَرَى أتوكَّأ عَلَى عَصًا».

قالَ الوزيرُ: «قالَ الملكُ فى آخرِ حَديثه: لاَ تَبِعْ رَخيصاً، فماذا سَأقولُ للمَلِك لَوْ سَألنى عن ذلكَ؟».

قالَ الصَّيادُ: «قُلْ لَهُ عَملَ الصَّيَّادُ بالوَصيَّةِ، وباعَ الكَلاَم، وأخَذَ ثَمَنَهُ هَذا الحصَانَ الأبيضَ الجَميلَ».

ضَحك الوَزيرُ، وقَالَ: «خُذْه يا صَيَّادُ .. فهو الآنَ لَكَ».

٤- الخليفة والوالى الفقير

وَلّى عُمَرُ بن الخطابِ - رضى اللهُ عنه - سَعيدَ بنَ عامرٍ علَى حمْص. ولم يَمُرَّ وقتٌ طويل حتى جاءَ إلى أمير المؤمنين وَفدٌ من أهلِ حمْص. فقالَ لَهُم: «اكتبُوا لِى أسماءَ فُقَرائكم حتَّى أعطِيَهم مِن مالِ المسلمين».

فكتبُوا إليْه أسماءَ فُقَرائهم، فكانَ مِنْهَم سعيدُ بنُ عامرٍ والى حِمْص. فَسأَلَهُمْ عُمَرُ «ومَن سَعيدُ بنُ عامر؟».

قالُوا: «أميرُنا». قالَ عمرُ رضى اللهُ عنه: «أميرُكم فَقيرٌ؟!».

قالُوا: «نَعم والله، إنَّه تَمرُّ عليهِ الأيامُ الطوالُ ما تُوقَدُ فى بَيْتِهِ نارٌ، ولا يُطبَخَ طعامٌ».

فَبكَى عمرُ رضى اللهُ عنه ، ثم وَضَعَ ألفَ دينارٍ فى صُرَّة، وقالَ: «أعطوهُ هَذا المالَ ليَعيش مِنهُ».

فَلما رَجَعَ الوَفدُ إلى حمْص وأعطاهُ الصُّرةَ، قالَ سعيدٌ: «إنا لله وإنا إليه راجعُون!». وكأنَّهُ قَدْ أصابَتْهُ مُصيبَةٌ، فَسأَلَتْهُ زوجَتُه: «ما الأمْرُ؟.. هَلْ حدَثَ مكروهٌ لأمير المؤمنين؟!». قالَ سعيدٌ: «أعظمُ مِنْ ذلكَ! دَخَلتْ علَيَّ الدُّنيا لتُفسدَ آخرتى»... قالَت الزَّوْجَةُ: «تَخَلَّصْ مِنْها!». وَهِيَ لاتَعْرِفُ مِنْ أمرِ الدنانير شَيْئاً. قالَ سَعيدٌ : «أوتُساعِدِيننى - يا زَوجَتى - علَى أنْ أتخلصَ مِنْها؟!».

قالت : « نعم » .

فَوزَّعَ سَعيدُ بنُ عامرٍ الدَّنانيرَ الألفَ التى أرسلَها إليهِ عُمرُ عَلَى فُقراء المسلمين.

وبعدَ فَترَة منَ الزَّمَنِ زارَ عمرُ بنُ الخطاب - رضى اللهُ عنه - حمصَ يتَفقَّدُ أحوالها، وقابَلَ أهلها وسَألَهُم عَنْ أميرِهم سَعيد بن عامرٍ. فَشكَرُوا فيهِ وأثنَوا علَيه،

ولكنَّهُمْ شكَوا لعُمرَ بنِ الخطابِ - رضى اللهُ عنه - ثلاثَةَ أفعال لا يُحبُّونَها فيه. فاستَدعَى عمرُ - رضى اللهُ عنه - سَعيدَ بنَ عامرٍ وَجَمَعَ بينَهُ وبينَهُم. وقالَ عُمَرُ رضى اللهُ عنه : «ما تَشكُونَ مِنْ أميرِكُم؟».

فقالوا : «إنه يَخرُجُ إلى النّاس مُتأخِّراً فى النهار». ونظرَ أميرُ المؤمنين إلىَ سَعيد وَسَأَلَه أنْ يُجيبَ. فأجابَ سعيدٌ: «والله إنى أكرهُ أن أقولَ ذَلكَ. لَيسْ لأهْلى خادم.. فأنَا أعجِنُ مَعَهُم عَجينى... ثم أنتظر حَتَّى يختمرَ.. ثم أخْبزُ لَهُم.. ثُمَّ أتوَضَّأ وأخرجُ إلى النَّاسِ».

ثُمَّ قالَ عُمَرَ رضى اللهُ عنه : «وما تَشكونَ مِنْهُ أيْضًا؟».

قالُوا: «إنَّهُ لا يَرُدُّ عَلَى أحدٍ فى اللَّيْلِ!».

قالَ سَعيدٌ: «والله كُنْتُ أكْرَهُ أنْ أعلِنَ ذَلكَ أيضاً... إنّى جَعَلتُ النَّهارَ لَهُم.. وَجعَلتُ الليلَ لله عزَّ وَجَلَّ» .

قالَ عُمَرَ رضى اللهُ عنه : «وماذا تَشكونَ منهُ كذلك؟».

قالُوا: «إنَّ لَه يَوماً فى الشَّهر لا يُقابِلُ فيه أحَداً».

فقالَ عمرُ رضى اللهُ عنه : «وماذا تقولُ فى ذلك يا سعيدُ؟».

فقالَ سعيدٌ : «ليسَ لِى خادمٌ تَغسلُ ثيابى... ولَيسَ عندى ثيابٌ غَيرُ التى عَلىَّ.. فَفى هَذا اليومِ أغْسِلُها، وأنتظرُ حتَّى تَجفَّ، ثُم أخْرُجُ إليهمْ آخرَ النهارِ».

عِندَ ذَلكَ قالَ عمرُ رضى اللهُ عنه : «الحَمدُ للهِ الّذى لمْ يُخَيِّبْ ظَنّى بِكَ!».

٥- عصا الخيانة

دَخَلَ رَجُلان المحكمةَ، ووَقَفا أمامَ القـاضى، أحَدُهُما طويلُ القامَة، صُلبُ العُود، فى الخمسينَ منْ عمره، والآخَرُ شيخٌ مَحْنِىُّ الظَّهْرِ يتوكأ عَلَى عَصا غليظة.

قـالَ الرجلُ الأولُ: «أعطيتُ صـديقىَ هذا عَـشرَ قِطـعٍ ذَهبيَّـة. ووَعَـدَنى أنْ يَرُدَّها عندما تَتَحَسَّنُ أحوالُه، وكُلَّما طالبتُهُ بِها تَهَرَّب منّى».

سَألَ القاضى الشيخَ: «ما رَأْيُكَ فى كَلام صاحِبِكَ؟».

أجابَ الشيخُ: «أعتَـرفُ أنهُ أعطانى عَشرَ قطعٍ ذهبية لكننى رَدَدْتُهـا إليه يا سَيّدى».

قالَ القاضى: «أتُقسم أمام المحكمَة عَلىَ أنَّكَ رَدَدْتَ إِلى صَديقكَ القطعَ الذهبيَّةَ؟!».

قالَ الشيخُ: «نَعَم ، يا سيّدى». قالَ القاضى: «إذَنْ .. ارفع يَدَكَ اليُمنْى وأقسمْ». التفتَ الشـيخُ إلى صديقـه، وطَلَبَ منهُ أن يُمـسكَ العَـصا حَـتَّى يرفَعَ يَدَهُ وَهُوَ يُقـسمُ. رَفَعَ الشيخُ يَدَهُ وقالَ: «أقسمُ أنى أعدتُ القطع الذهبيةَ العَشرَ إليه».

لامَ القاضى الرَّجُلَ الذّى يَتَّهِمُ صَديقَهُ الشَّيخ، واعتذرَ الرَّجُلُ للقاضى بأَنَهُ رُبَّما قَدْ نَسىَ ذَلكَ.

أخَذَ الشـيخُ عصاهُ منَ الرَّجُلِ، وَهَمَّ بالانصـراف وَهُوَ يَتَوكَّأُ عَلَى عَصـاهُ. وَقَبلَ أنْ يخرُجَ الرَّجلانِ منَ المحكمةِ، خَطَرَتْ للقاضى فِكْرَةٌ مُفاجئةٌ.. فناداهُما.

عادَ الرَّجُلانِ إلَى القاضى، فَسَألَ الشَّيخْ:

«هَلْ تَعوَّدْتَ دائمًا - أيُّها الشيخُ - أنْ تَتَوكَّـأ عَلَى عَصًا؟» أجابَ الشيخُ: «أحيانًا يا سَيِّدى..». وَجَّهَ القاضى السؤالَ نفسَه إلىَ الرجلِ الآخَرِ فأجابَ:

«لا، يا سيدى... ما رَأيْتُهُ منْ قَبْلُ يَتَوكَّأ عَلَى عصًا!».

طَلَبَ القاضى مِنَ الشيخِ أنْ يُسلمَهُ العَصا. أمـسَكَ القاضى العَصا وراحَ يُقلبُها بينَ

يَدَيْه ويَفَحَصُها. لاحَظَ القاضى أن العصا ثقيلةٌ. نظرَ القاضى إلى مَقْبِضِ العَصا فَوَجَدَه مِن النَّوْعِ الذى يُمكنُ خَلْعُهُ عنها. أدار القاضى المَقْبِض فى مكانه فدارَ. جَذَبَ القاضى المقبِضَ بقوة فانْخَلَعَ فى يَدِه.

رأى القاضى أن العَصا مَثقوبةٌ، وَوَجَدَ الثُّقب مسدوداً بقطعَةِ قُماش. جَذَبَ القاضى قطعةَ القُماش من الثُّقْب، وأمالَ العصا قليلاً، فإذا بالقطع الذهبية تتساقَطُ عَلَى الأرض أمامَ الحاضرين.

طَلَبَ القاضى منَ الرجل أن يجمعَ قطعَهُ الذهبيةَ. جَمَعَها الرَّجُلُ، وَعَدَّها فَوَجَدَها عَشراً. قالَ القاضى للشيخ: «أيها الخَبيثُ... تَصورتَ أنكَ تستطيعُ أنْ تخدعَ هذا الرجلَ وتَمكُرَ بى.!!! لَقَدْ شَكَكْتُ فى أمركَ عندما وَجَدْتُكَ تُسَلِّمُ صديقَكَ العصا قَبلَ أنْ تُقسمَ.... أتَظُنُّ أيها اللَّئيمُ أنَّ قَسَمَك صَحيح؟!».

ثمَّ التفتَ القاضى إلى صاحبِ القطعِ الذهبية، وقالَ لَهُ: «كانَ هَذا الشيخُ ماكراً وكاذباً حينَ سَلَّمَكَ العَصا التى بداخلها قطعُكَ الذهبيةُ، وأقْسَمَ أنهُ رَدَّ إليكَ ذَهَبَكَ.. وكانَ ذَهَبُكَ بَيْنَ يَدَيكَ وأنتَ لا تَدْرى. وَهذا غِشٌّ وخداعٌ!».

أخيراً.. التفتَ القاضى إلى الحُراس وَقالَ:

«خُذوا هَذا اللِّصَّ.. وَضَعُوهُ فى السِّجْن حَتَّى أجِدَ لَهُ عُقوبةً مُناسِبةً لتَلاعُبه بالقَسَم، وعُقوبةً أشدَّ عَلَى خيانَته الأمانَة».

وَخَرَجَ الرَّجُلُ منَ المحكمة سَعيداً وَهُوَ لا يُصَدِّقُ أنَّ قطعَهُ الذهبيةَ قَدْ عادَت إليْه.. وكانَ كُلُّ الحاضرين مُعجَبينَ بِذكاءِ هذا القاضى وَفطنَته.

٦- لا ألجأ إلا إلى الله

وَصَلَ أبو مُسلمٍ إلى بيْـته، فقالَتْ لَهُ زَوجَتُـهُ: «بيْتُنا لَيْسَ فيهِ حَطبٌ نَـسْتَدفئُ بِهِ من هَذا البَردِ القارسِ.. ولَـيسَ فيهِ طعامٌ ولا شَرابٌ.. ولا بِهِ فَـرْشٌ ولا غِطاءٌ.. فَلماذَا لَمْ تَشتَرِ الأشْياءَ الّتى طَلَبْتُها مِنْكَ؟».

أجابَ الزّوْجُ فى حُزْنٍ وألَمٍ: «لأنَّ جَيْبى لَيْسَ فيهِ دينارٌ ولا درهَم!».

قالتِ الزَّوجَـةُ : «كَيفَ تَشكو الفقْـرَ وأنتَ مِن أعزِّ الناسِ لَدَى الخَليفَـة، وهُوَ أعزُّ النّاس عِنْدَكَ .. اذهَب إلَيه واشرَحْ لَهُ حالَنا ومَا نَحْنُ فيهِ مِـنْ حاجَةٍ وفَقْرٍ، وأنَا مُتأكِّدَةٌ مِنْ أنّه لَنْ يَترُكَكَ بِلا مُساعَدَةٍ أوْ عوْنٍ».

قالَ الزَّوْجُ لِزَوْجَتـهِ: «مَعاذَ اللَّهِ أنْ أفعلَ هَذا، فَأنا أخـافُ أن يَرانى اللهُ وَقَدْ لَجأتُ إلى عَبدٍ مِن عِبادهِ ولَم ألجأ إلَيه!».

خَرَجَ أبو مُسلمٍ مِنَ البيت، وَذَهَبَ إلى المسْجِدِ، وَصَلَّى ركعَتَين، ثمَّ رَفَعَ يَدَيهِ إلى السَّمـاء، وأخَذَ يَدعُو ربَّهُ ويَقـولُ: «اللَّهُمَّ يارَبّ.. يا عارفًا بالأسـرارِ، أنتَ تعلَمُ أننى أخْـجَلُ وأستَـحى أن ألجـأ إلى أحدٍ غـيـركَ.. يا واسعَ الكَرَم.. اللَّهُمَّ ارزُقنى قَـمحـاً وَشعيـراً وعَدساً وزَيْتا وحَطبًـا، وارزُق زَوجَتى - أمَّ مُسلمٍ - كسـاءً وخِمَاراً، وارزُق أطفالِىَ أثوابًا وبَقَرةً يَشْرَبونَ لَبَنَها .. اللَّهُمَّ فاستَجِبْ دَعْوَتى... آمين!».

وتَصـادفَ أن كانَ فى المَـسْـجِدِ - فـى ذَلكَ الوقتِ - رَجُلٌ مِنْ أعوانِ الـخليفـة، فَسَـمِعَ دُعاء أبى مُـسلمٍ، وانطلقَ مُسرِعًـا إلى قَصـرِ الخَليفَةِ، لِيـذْكُرَ لَهُ، مـا رأى وَمَا سَمِع.

وَدَخلَ عَلى الخليفة وقَالَ لَهُ: «رأيْتُ الآنَ رَجُلاً فى المَسْجِد يَدعو ربَّهُ ويَطلبُ أشياءَ عَجيبةً..». ثُمَّ ذكرَ للخليفةِ الأشياءَ التى طَلَبَها الرَّجُلُ. ضَحكَ الخَليفَةُ عنْدَما سَمِعَ الطَّلَبات وقَالَ: «أعتقدُ أنَّنى أعرفُ هذا الرَّجُلَ الَّذى رَأيتَهُ فى المَسجِد.. إنَّهُ أبُو مُسلم.. وَهُوَ شَديدُ الحَياء منَ الله... والآنَ أعدْ عَلَيَّ كُلَّ ما قالَه الرَّجُلُ فى دعْوَتِه بالحَرْفِ الواحد، لأرسلَ إلى بَيته منْ كُلِّ شىء اثنين قَبلَ أنْ يَخرُجَ منَ المَسْجِد».

بَقىَ أبو مُسْلمٍ فى المسْجدِ ساعاتٍ يَقرأ القُرآنَ وَيَدعُو ربَّهُ، ثُمَّ خَرَجَ مِنَ المسجدِ عائداً إلى بَيْته، وَهُناكَ قابَلَتْهُ زَوجَتُهُ بِالفَرَحِ والسُّرور، وَرَحَّبتْ بِهِ أجْمَلَ تَرحيب، وقالَتْ: «تَأمَّلْ ما نَحْنُ فِيهِ مِنْ خَيراتٍ وَنِعْمَة - يا أبا مُسلمٍ - ومَا هَذا إلاَّ لأنَّك سَمِعْتَ نَصيحَتِى أخيراً وذَهَبْتَ إلىَ صَديقكَ الخليفَة!».

تعَجَّبَ الرجلُ من كلامِ زوجتِه، وأقسَمَ لهَا أنّه لم يذهب إلى الخليفةِ، ولم يَرَهُ طوالَ الأسبوع. عندئذٍ سألت الزوجةُ: «أخبِرنى إذاً إلى أيْنَ ذَهَبْتَ؟ وإلى مَنْ شكَوْتَ؟».

أجابَها أبُو مُسلمٍ : «ذَهَبْتُ إلىَ المَسجدِ، وَشكَوتُ حالَنا إلى اللهِ سُبحانَه وَتَعالىَ؛ فَأنا - كَما تَعلَمين - يا أمَّ مُسلمٍ أستَحِى مِنَ اللهِ أن يَرانى وَقَدْ لجَأتُ إلى أحدٍ غيرِه..». شكَرَتِ الزَّوْجَةُ ربَّها، وَقالتْ لِزَوجِها: «ما أعَزَّ نَفْسَكَ! وما أحسَنَ ما فَعلتَ.. يا أبا مُسلمٍ!

وما أرْحَمَ اللهَ الذى لا يَنْسى عِبادَهُ!».

٧-شكر النعمة

تقابَلَ ثلاثَةُ رجال...

الرجلُ الأولُ أبرصُ.. وعَلى جلدهِ بُقَعٌ كثيرةٌ بيضاء.

والرَّجُلُ الثانى أقْرَعُ... ليسَ فى رأسهِ شَعر.

والرَّجلُ الثالثُ أعمَى ... لا يَرَى شيئًا.

دَعا الرَّجُلُ الأبَرص رَبَّهُ وقال: «رَبِّ اشفِنى مِن هَذا البَرَصِ الذى غَطى جِلدى وغَيَّرَ شَكلى».

وَرَفعَ الرَّجُلُ الأقرَعُ وَجْهَهُ إلى السَّماء، ودَعا رَبَّهُ، وقالَ: «اللهمّ اشفنى مِنْ هذا القُراع.. واملأ رأسى بالشَّعرِ مثل بقيةِ الناس». وَدَعا الرجلُ الأعمَى رَبَّهُ وقالَ:

«يا رَب اشفنى مِنَ العَمَى واجعلنى أرَى مثلَ بقية الناس».

وفى تلكَ اللحظة هَبَطَ مَلَكٌ مِنَ السَّماءِ أرسَلهُ اللهُ تعالى ليمتحنَ الرِّجالَ الثَّلاثَة.

كانَ الملكُ فى صُورة إنسان مُضىء الوَجْه.

تَقَدَّمَ الملَكُ مِنَ الرِّجال، وَسَأَلَ كُلَّ واحد منهُم عَنْ حاجَته، وعَنْ أحَبِّ المال إليْه.

قالَ الرجلُ الأبرَصُ: «أريدُ لجسمى لَونًا حَسَنًا. وَأحَبُّ المالِ إلىَّ الإبل».

وقالَ الرجلُ الأقرَعُ: «أمَّا أنا فأريدُ شَعْرًا غزيراً يَملأ رأسى. وأحَبُّ المالِ إلىَّ البَقَر».

وقالَ الأعْمَى: «أمّا أنَا فأتَمَنَّى أن يشْفىَ اللهُ عَينىَّ وَيَرُدَّ إلىَّ بَصَرى. وأحَبُّ المالِ إلىَّ الغَنَم».

مَسَحَ الملَكُ جلْدَ الأبْرَصِ بيَده، فإذا بهِ يصيرُ حَسَنَ اللَّوْن، ثُمَّ أعطاهُ ناقَةً حاملاً.

وَمَسَحَ الملَكُ عَلى رأسِ الأقرع. فإذا بِشَعْرٍ ناعِمٍ جَميلٍ يَظْهَرُ فى رأسِهِ. ثَمَّ أعطاه الملَكُ بَقَرةً حاملاً.

ومَسَحَ الملَكُ على عَيَنى الأعْمَى فارتَـدَّ بصيراً، وصار يرَى، ثُمَ أعطاهُ الملَكُ شاةً وَلادةً. ومَرَّتْ سَنَوات. وصـارَ للرَّجُلِ الأوّلِ عددٌ كـبيـرٌ منَ الجمال، وصـارَ للرَّجُلِ الثانى قَطيعٌ منَ البقَر، وصارَ للرَّجُلِ الثالثِ أغنامٌ كثيرة.

وأرادَ اللهُ – سبحانَه وتعالَى – أن يمتَحِنَ الرجالَ الثَلاثَة.. أرْسَلَ اللهُ إليهم الملَكَ فى شَكْلِ رَجُلٍ مسكين.

ذَهَبَ الملَكُ إلى الـرَّجُلِ الأوَّل، وقالَ لـه: «أسألُكَ بـالذى أعطاكَ اللَّونَ الحَـسَن، والمالَ الكثير، أنْ تُعطِينَى ما يُساعدُنى عَلى السَّفر».

رَدّ الرَّجُل : «هذا مالُ أجدادى، ورِثْتـهُ عَنْهم، وَعَلَيَّ حُقوقٌ كثـيرة... وَلا مالَ لَكَ عندى».

تَرَكَ المَلَكُ الـرجُلَ الأولَ، وتَوَجَّـهَ إلىَ الرجلِ الثـانى، وقـالَ لـه: «أسـألكَ بالذى أعْطاكَ الشَّعْرَ الجميلَ والمالَ الكثيرَ أن تساعدَ أخاكَ الفقيرَ بشَىء ممّا عنْدَك».

أجابَ الرجلُ الثانى: «إنما وَرِثْتُ كُلَّ هَذا عَنْ أجْدادى.. فابتعدْ عنّى».

ذَهَبَ الملَكُ إلى الرجُلِ الثالث، وقالَ لَهُ يَسْتَعْطفهُ: «أسْألُكَ بالّذى رَدّ إليكَ بَصَرَكَ أنْ تُعْطِيَنى شاةً ممّا عنْدَك، أشرَبَ منْ لَبَنِها فى سفرى».

فقـالَ الرجل الثالث: «كُنْتُ أعمَـى فَرَدّ اللهُ إلىَّ بَصَرى، فَـخُذْ ما شِـئْتَ، واترُكْ ما شئتَ، فَوَالله لا أمْنَعُكَ شَيْئًا رَزَقَنى اللهُ به!».

فقالَ لَهُ الملَك: «أبْقِ مالَكَ عندَك... لَقَدْ امتحنَكُم اللهُ – أنْتُم الثلاثَة – وَرَضِيَ اللهُ عنكَ، لأنَّكَ تَشكُرُ النّعمةَ، وتَتَصَـدَّقُ منْ مالكَ الذى رَزَقَكَ اللهُ به، وسخطَ اللهُ عَلَى صاحبيْك... لأنّهما أنكَرا نعمتَه، ومَنَعـا الصَدَقَة... فأعادَهُما اللهُ إلى ما كانا عليْه من مَرَضٍ وفَقْر.

٨- الرحمة فى قلوب المحسنين

وَصَلَ عَمّارٌ إلى قَصرِه فى الظُّهْرِ مُتْعَبًا جائعًا، وَوَجَدَ عَلَى المائِدَة أصْنافًا كَثيرةً مِنَ الأطعمَـة الّتى يُحبهُـا، ولكنّهُ لَمْ يمُدَّ يدَهُ إلى أىِّ صنفٍ مِنْ أصْناف الـطَّعامِ، فَلَمْ تكُنْ لَدَيْه شَهِـيَّةٌ للأكْلِ. نادَى عَمّـارٌ خادمَهُ «أمـجَدَ» وَطَلَبَ مِنْهُ أنْ يرْفَعَ الطَّعَـامَ، وَيُعِدَّ لَهُ فَرَسَهُ لِيَخْرُجَ.

قَالَ أمجَدُ: «كيفَ تَخْرُجُ الآنَ - يا سَيِّدى - فى هَذا الجَوِّ الحارِّ؟ ألَمْ تتَعوَّدِ النَّوْمَ فى وَقْتِ الظَّهيرَةِ؟!». قالَ عَمّارٌ: «لا أدرِى يا أمْـجَد.. لماذا لَيْسَ لَدَىَّ رَغْبَةٌ فى طعامٍ أوْ نَوْم؟!». فَقالَ الخادِمُ: «عَافاكَ اللهُ مِنْ كُلِّ سُوءٍ يا سَيِّدى!».

وَخَـرَجَ عَمّـارٌ مِنْ قَصْـرِه يرْكَبُ فَـرَسَهُ، وَانطلَقَ بِهِ إلى قَلْـبِ الصَّحْـراءِ يَسيـرُ بلا هَدَفٍ. وكلَّما شَعَرَ عمّارٌ بِشدَّةِ الحَرّ اتَّجَهَ بِفرَسِه إلى مَدينَةٍ قَرِيبَةٍ.. وَفى الطَّرِيقِ شاهَدَ داراً صَغيرَةً أمامَها شجرةٌ خَضراءُ. اقـتَرَبَ عَمّارٌ مِنَ الدّارِ فَوَجَدَ الخادمَ واقفاً بالبابِ. قالَ عَمّار: «يا غُلامُ. أعنْدَكَ مـاءٌ تَسقِينى؟». رَدَّ الخادمُ: «لا تَقفْ فى الخارجِ هكَذا يا سيِّدى! إنى أراكَ مُتْعَـباً وَمُرهَقًا مِنَ الحَرِّ والسَّفرِ.. تَفَضَّـلْ بالدُّخولِ، وَسَوْفَ أحضِرُ لَكَ الماءَ البارِدَ، والمنْديلَ المُعطَّرَ لِتُجَفِّفَ بِهِ عرَقَكَ».

قالَ عَمَّارٌ: «كَمْ أنتَ ذكِىٌّ يا غُلامُ! وَقَلبُكَ مَملوءٌ بالرَّحْمةِ!».

غـابَ الغُلامُ وَعـادَ ومَعَـهُ إناءٌ مِنَ المـاءِ البَارِدِ، وَسَـقى عَـمّاراً، وَقَـدَّمَ لَهُ المنديلَ المُعَـطرَ، فَمَسَحَ عَـمّارٌ عَـرَقَهُ، وَشكَرَ الخَـادِمَ وانصرَفَ. ركبَ عَـمارٌ فَرَسَـهُ وانطلق عائداً إلى قَصْرِهِ وفى الطَّرِيقِ سَمِعَ المُؤذِّنَ يُنادى للصلاةِ ، فاتَّجَهَ إلى أقربِ مَسجد.

وبعدَ الصَّلاةِ وبَيْنَما كانَ عمّارٌ يستعدُّ للخُروجِ منَ المسْجِدِ شاهَدَ رَجُلاً أعمَى يتَّجِهُ نَحْوَهُ. فسألَهُ عمّارٌ: «ماذا تُريدُ أيُّها الرَّجُلُ؟». فقالَ الأعمَى: «أُريدُكَ أنتَ». فَسَألَهُ عمّارٌ: «ولِماذا تُريدُني بالذّاتِ؟». قالَ الأعمَى: «لأنّني شَمَمْتُ من بُعْدٍ رائحةَ عِطرٍ طيِّبةً، فأدركْتُ أنكَ منْ أهلِ النَّعيمِ، وأرَدْتُ أنْ أحدِّثَكَ بشيءٍ.. أترَى هَذَا القصْرَ الكبيرَ الذي أمامَ المسجدِ؟! لقَدْ كانَ في يومٍ منَ الأيامِ قصْرَ أبي.. وبَاعَهُ لِصَديقٍ عزيزٍ علَيْهِ، وقَدْ حدَّثَني عَنْ هذا الصَّديقِ كثيراً، وقالَ لي إنَهُ رَجُلٌ كَريمٌ مَعْروفٌ بِرَحْمَتِه للفقَراءِ والمُحتاجين».

عندئذٍ سَأَلَهُ عمّارٌ باهتمامٍ: «وأينَ أبوكَ الآنَ؟». قالَ الأعمَى: «بَعدَ أنْ باعَ أبي هَذا القَصْرَ، وسافَرنا من بَلَدٍ إلى بَلَد، وكانَ أبي مُسرِفاً، فَقَدَ كُلَّ ما يَمْلك، وفَقَدْتُ أنا بَصَري بِسَبَبِ مَرَضٍ، وساءَتْ أحوالي، وأصابَني الفقرُ الشّديد.. فهل يُمكنُكَ أنْ تساعِدَني وتأخُذَني إلى صاحبِ هَذا القَصْرِ، لَعَلَّهُ يَسْتَمِعُ إلَيَّ شَكْوايَ، ويُشْفِقُ عَلَيَّ ويُساعدُني؟».

قَالَ عمّارٌ بِتَأثُّرٍ شَديدٍ: «عجَباً لِما حَدَثَ لِيَ اليوْمَ أيُّها الرَّجُلُ.. فَقَدْ فَقَدْتُ شَهِيَّتي ولَمْ أتَناوَلْ طعامَ الغَداء، وأصابَني القَلَقُ ولَمْ أنَمْ كعادَتي.. حَدَثَ كُلُّ هَذا كَيْ نتقابَلَ وأستَمِعَ إلى شكواكَ». فَسألَهُ الأعمَى: «ما أعظَمَ صُنْعَكَ يا رَبّ!». قالَ عمّارٌ: «هَذِهِ ألف دينار، قد سَلَّمَها لِيَ اليومَ أحدُ وكَلائي مِنْ إيجارِ أرْضٍ لي، وكأنَّه قَدْ أحْضَرَها لَكَ.. تفَضَّلْ.. هِيَ مِنْ نَصيبِكَ».

قالَ الأعمَى: «شُكْراً لله الذي وَضَعَ الرَّحْمَةَ في قُلوبَ المُحْسِنينَ ليَعطِفُوا عَلَى الفُقَراءِ والمَساكينِ».

٩- العفو عند المقدرة

أرادَ شابٌّ أنْ يُسافرَ إلى مَكَّةَ لِيُؤدِّيَ العُمْرَةَ. فَأعَدَّ جَمَلَهُ وطعامَهُ، وبَدأَ رِحْلَتَهُ.

وبَعْدَ ساعاتِ منَ السَّفرِ وجَدَ الشابُّ مَكانًا به عُشْبٌ أخْضَرُ، فلجأَ إليْه ليَسْتَريحَ بَعْضَ الوَقْتِ. جَلَسَ الشابُّ تَحْتَ ظِلٍّ شَجَرَةٍ وراحَ فى نَوْمٍ عَميقٍ.

وَفى أثناء نَومه أخَذَ جَمَلُهُ يَنْتَقِلُ هُنا وَهُناكَ حَتَّى دَخَلَ فى بُسْتانٍ قَريب. بَدأَ الجَمَلُ يأكُلُ منَ الثمارِ والأعنابِ ويُفْسدُ كلَّ مكانٍ يَمرُّ به. وكانَ حارسُ البُسْتانِ شَيْخًا كَبيرَ السِّنِّ. حاولَ الحارسُ طرْدَ الجَمَلِ منَ البُستانِ فَلَمْ يَقْدِرْ. خافَ الحارسُ أنْ يُفسدَ الجَمَلُ البُستانَ كُلَّهُ فَقَتَلهُ.

ولَما استيقَظَ الشَّابُّ منْ نَوْمه بَحَثَ عَن جَمَله فَوَجَدَهُ داخلَ البُستانِ مَقْتولاً. جاءَ حارسُ البُستانِ فَسألهُ الشابُّ: «مَن قَتَلَ هَذَا الجَمَلَ؟». ذَكَرَ الحارسُ ما فَعَلَهُ الجَمَلُ بأشجارِ البُستانِ ممّا دَفَعَهُ إلى قَتْلِه. غَضبَ الشَّابُّ غَضَبًا شَديداً. وَضَرَبَ الشَّيْخَ ضَرْبَةً قَتَلَتْهُ فى الحالِ.

نَدمَ الشَّابُّ عَلى ما فَعَلَ وَفَكَّرَ فى الهَرَبِ. وفى أثناء ذَلكَ وَصَلَ ابنا الحارسِ وَأمْسَكا بالشَّابِّ، وَذَهَبا بِهِ إلى أميرِ المؤمنينَ عُمَرَ بنِ الخطابِ - رضى الله عَنْهُ - وَطَلَبا تَنْفيذَ حُكْمِ القَصاصِ فى الشّابِّ الذى قَتَلَ أباهما.

سَألَ عُمَرُ - رضى الله عنه - الشَّابَّ، فاعتَرَفَ بِجَريمَتِه، وقالَ إنَّهُ نادمٌ عَلَى ما فَعَلَ أشَدَّ النَّدَم.

قالَ عُمَرُ رَضى الله عنه: «ليسَ لَكَ عِنْدى إلاَّ تَنْفيذُ شَرْعِ الله».

عنْدئذ طَلَبَ الشّابُّ منْ عُمَرَ بنِ الخطابِ - رَضى الله عنه -أنْ يُمْهلَهُ يومَيْن يَذْهَبُ فيهما إلى بَلْدَته ليُسَدِّدَ بَعْضَ الدّيونِ التى عَلَيه. فقالَ ابنُ الخَطّاب رَضى الله

عنه: «أحضرْ مَنْ يَضْمَنُ لَنا عودَتَكَ ثانيةً، وَإذا لَمْ تَعُدْ نَفَّذْنا فيه الحُكْمَ بَدَلاً مِنْكَ».

فَقالَ الشابُّ: «أنا - يا أميرَ المؤمنين - غَريبٌ عَنْ هَذه الديارِ، وَلا أَسْتَطيعُ أنْ آتى بِضامنٍ».

وكانَ الصَّحابِىُّ أبو ذَرّ الغِفَارِىُّ - رَضِى الله عنه - حاضِراً، فقالَ لِعُمَر: «يا أميرَ المؤمنينَ.. هَذه رأسِى أقَدِّمُها لَكَ إذا لَمْ يَحْضُرِ الشّابُّ بَعْدَ يَوْمَيْن».

فَقالَ عُمَرُ بنُ الخطّابِ - رَضِى الله عنه - فى دَهْشَةٍ: «أأنتَ الضّامِنُ.. يا أبا ذَرّ.. يَا صاحِبَ رَسولِ الله؟!». قالَ أبو ذَرّ: «نَعَم، يا أميرَ المؤمنين».

وفى يَومِ تَنْفيذِ حُكْمِ القَتْلِ انتظَرَ الجميعُ عَودةَ الشابِّ.. وكانت المفاجأةُ! فقد رأى الحاضرونَ الشابَّ مُقبلاً من بَعيد فى سُرعة حتَّى وصلَ إلى مَكان تَنفيذ الحُكْم، فَنَظَرَ الجَميعُ إلَيْه فى دَهْشَة! حينَئذ قالَ عمرُ رَضى الله عنه : «لماذا عُدْتَ أيُّها الشّابُّ وَكُنْتَ تَسْتَطيعُ أنْ تنجُوَ مِنَ المَوْت؟».

قالَ الشّابُّ: «يا أميرَ المؤمنين.. فَعَلْتُ هَذا حَتّى لا تَقولَ النّاسُ إنَّ الوَفاءَ بالوَعْدِ قَدْ ضاعَ بَيْنَ المُسلمين».

وَتَوجَّهَ عُمَرُ - رَضى الله عنه - إلى أبِى ذَرٍّوَسَألَهُ: «وأنْتَ يا أبا ذَرّ.. لِمَ فَعَلْتَ ما فَعَلْتَ وأنْتَ لا تَعْرِفُ هَذا الشّاب؟!».

فَأجابَ أبو ذَرٍّ رَضى الله عنه : «فَعَلْتُ ذَلكَ حَتّى لا يَقولَ النّاسُ إنَّ المُروءَةَ قَدْ فَقَدَتْ أهْلَها!».

وَعنْدئذ قالَ الشّابّان ابنا الشَّيْخِ المَقْتول: «وَنَحْنُ بِدَوْرِنا - يا أميرَ المؤْمنين - نُشْهِدُكَ بِأنَّنا قَدْ عَفَوْنا عَنْ هَذا الشّابِّ وَتَنازَلْنا عَنْ حَقِّنا؛ فَلَيْسَ هُناكَ أفْضَلُ مِنَ العَفوِ عِنْدَ المَقْدرَة».

١٠ - أكرم الرجال

كانَ الناس فى أوَّلِ الإسلام يجتمعون حَـولَ الكعبة، ويتبادَلون الأحاديثَ. وجلَس ذاتَ يوم ثلاثةُ رجالٍ يتـحدَّثون عن كُـرَماء الإسلام. قـالَ الرجلُ الأول: «أكرمُ الناسِ عبدُ الله بنُ جـعفَر»، وقالَ الثانى: «أكرمُ الناسِ عَرَّابةُ الأوْسـى»، وقال الثالث: «أكرمُ الناسِ قَيسُ بنُ سَعْد».

اخـتلف الرجـالُ الثـلاثةُ ، وارتفـعتْ أصواتُـهم. الأولُ يقولُ: «عـبـدُ الله أكـرمُ». والثانى يقولُ: «عَرابةُ أكرمُ». والثالث يقولُ: «قيسٌ أكرمُ». سَمِعَ الناسُ مناقشَةَ الرجال الثلاثة، فقـالوا لهم: «اذهَبوا إلى أصحابِكم، وامـتَحنوهم، ثُم ارجعوا إليـنا وأخبرونا بما فَعَلَ أصحابُكم، لِنَحكُمَ بينكم!».

ذَهَبَ الرجُلُ الأولُ إلى بيت عبدِ الله بنِ جـعفر. وَجَدَهُ أمامَ البيتِ يَسْتَعدُّ لِيَركَبَ جَـمَلهُ، ويذهَبَ إلى أرضـه. قـال الرجُل لعبـدِ الله: «يا ابنَ عمٍّ رسـولِ الله! أنا ابنُ سبيل... ولا أهْلَ لى..». نَـزَلَ عَبْدُ الله مِنْ فَوْق جَملِه، وقـالَ للرَّجُل: «اركَب جَمَلى هذا.. وَخُذْ ما فى الحـقيبة.. وَخُذْ هذا السيفَ أيـضًا... هو سيفُ علىٍّ بن أبى طالب رضىَ الله عنه».

رجعَ الرجلُ إلى الكعبة. فتحَ الناسُ الحقيبةَ فَوجـدوا فيها ملابسَ ودنانيرَ كثيرة... وسيفَ علىٍّ بن أبى طالبٍ رضى الله عنه.

ذهبَ الرجلُ الثـانى إلى بيتِ قـيس بن سعـد. قـالتْ لَهُ الخـادمُ: «قيسٌ نائمٌ. مـاذا تطلُبُ؟ قال: «أنا ابنُ سبيل.. ولا أهْلَ لى..». قالت الخادمُ للرجل: «خُذ هذا الكيسَ،

فيه سَبْعُمائة دينار. هي كلُّ ما عندَ سَيِّدي». ثم أعطَتْهُ جَمَلاً... شكرَ الرجلُ الخادمَ وذَهَبَ. استيقظَ قيسٌ، فأخبرتْهَ الخادمُ بما فَعَلَت، فَسُرَّ لتَصرفِها وشكرَها. رَجَعَ الرجلُ إلى الكعبةِ يقودُ الجملَ ويحملُ الدنانير.

ذهبَ الرجلُ الثالثُ إلى بيْت عَرَابَة، فَوَجَدَهُ أمامَ البيْت، يُريدُ أن يذهبَ إلى المسجدِ للصلاة... كان عَرَابةُ أعمَى يعتمدُ عَلَى خادمٍ يقودهُ إلى المسجد. قال الرجل: «يا عَرَابة... أنا ابنُ سبيل، ولا أهلَ لي».

قال عَرَابة: «خُذ هذا الخادمَ... هو كُلُّ ما أمْلك». ثم سارَ عَرَابةُ يَتَحَسَّسُ الجدارُ ليصل إلى المسجد... أخذ الرجلُ الخادم، ورجَعَ إلى الكعبة.

تَجَمّعَ الناسُ حولَ الرجالِ الثلاثة... حكَى الرجُلُ الأولُ قصتَه... وَحكَى الثاني قصتَه... وحكَى الرجلُ الثالثُ قصتَه...

فَهَلْ تعرفون ماذا كانَ حُكْمُ الناس؟!

قالَ الناسُ: «أصحابُكم جَميعاً كُرماء... وَعَرَابَةُ أكرَمُ الرِّجال؛ لأنَّهُ أعطَى كُلَّ ما عِنْدهُ رغمَ شدةِ حاجته إليْه!».

١١- أقوى سلاح

بدأ دينُ الإسلام يَظهَرُ.. ورأت قريشٌ أنَّ هذا الدِّينَ الجديدَ ينتشرُ بسُرعة؛ لأن الحقَّ فيه واضحٌ كالشمسِ، ولأنه دينٌ سَمحٌ سَهلٌ يدعو إلى كُل خيْر، ويتفقُ معَ العقلِ والتفكير السليم.. قُريشٌ قامتْ بزُعَمائها ورُؤَسائها وكبار المُشركين فيها.. تحاربُ هذا الدينَ، بكُلِّ الطُرُقِ والأساليب، وتَصُبُّ العذابَ الشديدَ عَلَى مَن تستطيعُ مِنَ الذين أسلمُوا، حتَّى يَرجعوا عَن دينهم، ولكنْ ، تَحَمَّلَ المسلمونَ التعذيبَ بصبرٍ وإيمانٍ وَهُمْ يقولون: «هَذا فى سَبيلِ الله».

وكانت مجموعةٌ من سادة قُريشٍ وكُبرائها يَجْلسون فى ناديهم يتحدَّثون عنْ (محمد) ويتبادلون الرَّأىَ: ماذَا يفعلون فى أمرِه. وكان مَعَهُم سيِّدٌ مِنْ سادةِ قريشٍ اسمهُ (عُتْبَةُ بنُ ربيعةَ - أبو الوليد).... فقالَ لهم عُتْبَةُ:

«إنَّ (محمداً) يَجْلسُ الآنَ وَحدَهُ فى المسجدِ، فَهَل أذهبُ إليهْ وأكلمُهُ... وأعرض عليه أموراً.. لَعَلَّهُ يَقْبَلُ بَعضَهـا.. فَنعطيه ما يَشاء.. وَيَكُفَّ عنّا؟» فقالوا لَهُ: «نَعَم.. قمْ إليه وكَلّمْهُ». فقامَ عُتْبَـةُ بنُ ربيعةَ حتى وَصَلَ إلى رَسولِ الله - صَلى الله عليه وَسَلَّمَ. فَجَلسَ مَعَهُ، وقالَ لَهُ:

«يا ابنَ أخى، إنَّكَ منّا حَيثُ تَعلَمُ مِنَ الشَّرَفِ والمكانة. وإنَّكَ قَدْ أتَيتَ قَومَكَ بأمرٍ عَظيم.. فَرَّقْتَ بِهِ جَماعَتَهُمْ، وَعِبتَ بِهِ آلهَتَهُمْ وَدِينَهُم.. فاسمَعْ مِنِّى أعرِضْ عليكَ أموراً.. تَنْظُرُ فيها.. لَعَلَّكَ تَقْبَلُ مِنْها بَعضَها».

قالَ الرسولُ ﷺ: «قُل يا أبا الوليد.. أسْمَعْ». قالَ أبو الوليدِ عتبةُ بن ربيعةَ:

«إنْ كُنتَ تريدُ مالاً جَمَعنا لَكَ مِنْ أموالنا حَتَّى تكونَ أكثَرنا مالاً. وإنْ كُنتَ تُريدُ

مُلكاً جَعلناكَ عَلينا مَلكاً. وإنْ كانَ الـذى يأتيكَ شَىءٌ منْ عَمَلِ الجنِّ لا تستطيعُ رَدَّهُ عَنْ نفسكَ طلبنا لَكَ الطِّبَّ، ودفعْنا فيه منْ أموالنا حَتَّى تُشفَى منْهُ...».

ولّما فَرَغَ عتبةُ بنُ ربيعة مِنْ كـلامه، ورسولُ الله ﷺ يستمعُ إليه، قال الرسول ﷺ: «أقَدْ فَرَغْتَ يا أبا الوليد؟». (يعنى: هل انتهيْتَ مِنْ كَلامكَ؟).

قال: «نعم». قال الرسولُ ﷺ: «فاسمَعْ منِّى». وقَرأ بصوت مؤثِّر: بسمِ الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ۝٤﴾.

[سورة فصِّلت]

واستمرَّ الرسولُ ﷺ يقرأ القرآنَ العظيمَ وَعُتْبَةُ يَسْمَعُ وهو مأخوذٌ مَبهور.. شديد الإعجاب... واعتدلَ عتبةُ بنُ ربيعةَ وهو يسمعُ كلامَ الله احتراماً لهَذا الكَلامِ؛ لأنَّ العَرَب كانوا أهْلَ بَلاغَةٍ وفَصاحَةٍ يَعْرِفونَ الكَلامَ الجيِّدَ.. وأدركَ عُتْبَةُ أنَّ هَذا الكلامَ الذى لم يسمعْ لَهْ مثيلاً مِنْ قبلُ لا يمكنُ أنْ يكونَ مِنْ كلامِ البَشَرِ..

فلما انتهَى الرسولُ ﷺ مِنْ قراءته، قال لعتبةَ: «قد سَمِعْتَ يا أبا الوليد ما سَمِعْتَ.. فأنتَ وَذاكَ».

وقامَ عتبةُ يمشى إلى أصحابِه وهو مَبْهور، بَعْدَ أنْ تَرَكَ القرآنُ العظيمُ فى نفسِه أثراً عميقاً عَجيبًا.

فلمّا رآهُ أصحابُه قادماً، نَظَرُوا فى وجهِه، وقالَ بعضُهم لبعضٍ: «نَحْلِفُ بالله .. لقَدْ جاءكُمْ أبو الوليد بغير الوَجهِ الَّذى ذَهَبَ بِه...».

فلما جَلَسَ قالُوا لَهُ: «ما وَراءكَ يا أبا الوليد؟».

قالَ عتبةُ بنُ ربيعةَ: «لَقَدْ سَـمِعْتُ قولاً - والله - ما سَمِعْتُ مثلَهُ قَط.. والله ما هُو بالشِّعـر ولا بالسِّحر ولا بالكَهـانَة... يا مَعْشَـرَ قُريش، أطيعـونِى واتركواْ هَذا الرَّجُلَ وَشأنَهُ.. فوَالله إنَّهُ سيكَونُ لِقَوْله الذى سَمعتُ مِنْهُ نَبَأ عَظيمٌ».

فَدُهِشوا لما قالَهُ عُتْبَةُ، وقالُوا لَهُ: «سَحَرَكَ - واللهِ - يا أبا الوَليد!» قالَ عُتْبَة: «هَذا رَأيى فيه.. فافْعَلُوا ما شِئتُمُ».

وهكَذا كَانَ القـرآنُ أقوى أسلحةِ الإيمـانِ.. يُؤَثِّرُ فى النُّفوسِ تأثيـراً عَميقـاً عَجيـبًا يُحَيِّرُ العقُولَ..لأنَهُ كَلامُ اللهِ.. وَمُعجِزَتُه الخالدةُ عَلَى طولِ الزَّمانِ.

١٢- إغاثة الملهوف

دَخَلَ يَزيدُ بنُ المهلَّبِ عَلَى سُلَيمانَ بنِ عبدِ الملك وَلىِّ العَهدِ، وَهُوَ خائفٌ مُضطرب؛ لأنَّهُ هَرَبَ منَ السَّجْن، ويَخافُ أنْ تَتَبعَهُ شُرْطَةُ الحَجّاجِ وتَقبضَ عَلَيْه، وَتُسلِّمَهُ إلى الحَجّاجِ.. فَقَدْ كانَ الحجاجُ واليًا قاسيًا .. لا يَرحمُ أحداً..

قالَ يَزيدُ للأميرِ سُليمانَ: «لَجأتُ إليكَ يا مَوْلاى.. لِتَحْمينى منْ ظُلم الحجَّاج».
قالَ سُليمانُ: «لا تَخَفْ يا يَزيدُ.. فَقَدْ نَجوْتَ مِنَ القوْمِ الظالمين.. ما حكايَتُكَ مَعَ الحجاجِ الطاغيةِ؟.. ولماذا أدخلك السجنَ؟».

قال يَزيدُ: «فَرَضَ عَلىَّ ظُلْمًا أن أدْفَعَ أربعَةَ آلاف درْهَمٍ فدفعتُ... ثم أرسَلَ إلىَّ لأدْفَعَ ثلاثة آلافٍ أخرى.. فَرَفَضتُ .. فَوَضَعَنى فى السِّجنِ ظُلْمًا.. وعذَّبنى. لكنْ تَمكنتُ مِن الهربِ فى غَفلة من الحُراس، وَجئتُ إليكَ مُستَجيراً أطلُبُ حِمايتكَ .. وأخافُ أن يتصلَ الحجاجُ بأخيكَ الخليفةِ فيأمُرُكَ أنْ تُعيدَنى إلى السِّجنِ!».

طَمأنَ سُليمانُ يَزيدَ.. وقالَ له:

«سأجيرُكَ... وستَكونُ فى حمايَتى، بإذنِ الله».

عَرَفَ الحَجّاجُ أنَّ يَزيدَ قَدْ هَرَبَ إلى الشام عِنْدَ الأميرِ سليمانَ بن عبدِ المَلك. وَعَلى الفَوْرِ بَعَثَ الحَجَّاجُ برسالَة إلى الخَليفةِ الوَليد بن عبد الملك... وَحَكَى لَهُ فيها قصَّة هُروبِ يزيدَ مِنْ السِّجنْ... وَذَكَرَ لَهُ أنَّ يزيدَ يُقيمُ فى قَصْرِ وَلِىِّ العَهْدِ سُليمانَ ابنِ عبدِ الملكِ بالشامِ.

أرسلَ الخليفةُ رسالةً إلى أخيه سليمانَ يَطلبُ فيها منهُ أن يُسلمَ يزيدَ للشُّرطةِ كى تُعيدهُ إلى الحَجاجِ. أخبَرَ الأميرُ سليمانُ يزيدَ بهذا الأمرِ، فخافَ يزيدُ وقالَ: «الويلُ

لى لَوْ وَقَـعتُ فى يد الحـجـاج.. بالله عَـليكَ - يا مـولاى الأمـيـرَ - لا تُسـلمْنى للشُّـرطة... فـالمـوتُ عندى أهونُ مِنَ العَـودَةِ إلى الحَـجّاج الـظالمِ!». قالَ الأمـيـرُ سليمانُ: «هونْ عليكَ ؛ فَقَدِ استجرتَ بنا، وَطلبتَ حمايتنا، ونَحْنُ نُجيرُ من استجارَنا ونحميه...».

وكَتَبَ الأميرُ سليمانُ بنُ عبدِ الملكِ رسالةً لأخيه أميرِ المؤمنين يقول فيها:

«يا أميرَ المـؤمنين، إنى ما أجَرتُ يزيدَ بنَ المُهلبِ إلاَّ لأنَّـهُ هُوَ وأبوهُ وأخوهُ كانوا مُخلصينَ لنا، مُطيعين لأوامرنا.. ولَمْ أحْمِ عَـدُوا للخليفة. والحجّاجُ قد آذاه، وأهانَهُ، وسَجَنَهُ، وعَـذّبَهُ، وأخَـذَ منه أربعـةَ آلاف درهَمٍ ظلـمًا، ثُـم بعـدَها طَلَبَ ثلاثةَ آلاف درهمٍ... وقد جاء إلينْا.. استجارَ بِنا... فإنْ رَأى أمـيرُ المؤمنين ألاّ يُخزيَنى فى ضَيفى فَليفعَلْ.. فإنّه أهلُ الفَضلِ والكَرَمِ».

غَضب الخليفةُ الوليدُ بن عبدِ الملك، وَكَتَبَ خِطاباً رَدّاً عَلَى رسالة أخيه سُليمانَ ، يَطلبُ منهُ إرسالَ يزيدَ بنِ المهلب.. إلى قَصر الخلافةِ مُقَيَّداً بالسَّلاسِلِ.

نادَى الأمـيرُ سليمـان ابنَهُ أيوبَ وقـالَ لَهُ: «يا أيوب، سـأرسلكَ يا وَلَدى إلى دار الخـلافة عندَ عـمكَ الخليـفةِ مُـقيَّـداً بالسـلاسل... وستكونُ أنـتَ وضَيـفُنا يزيدُ بنُ المهلبِ فى قَيدٍ واحدٍ».

تَعَجَّبَ أيوبُ وسألَ أباهُ أنْ يُوضِّحَ لهُ السَّبَبَ، فقالَ سليمانُ لابنه: «ستَعرفُ السَّبَبَ - يا بُنَى - عِندَما تَقفُ أمامَ الخليفة وتَسمَـعُهُ وَهُوَ يَقرأ خِطابى الذى سَأرسلهُ معَكُما أنتَ وَضيفنا يزيدَ...».

دَخَلَ يَزيدُ وأيوبُ بنُ سليمانَ على الخليفةِ الوليد بنَ عبدِ الملك وأيديهما مَربوطةٌ

بالسَّلاسِلِ. وقدّما إليهِ الرِّسالةَ..

قرأ الخليفةُ رسالةَ أخيهِ سُليمان فَوَجَدَهُ يقول فيها:

«يا أميرَ المؤمنين، قَدْ وَجَّهْتُ إليك يزيدَ وابنَ أخيكَ أيوبَ بنَ سليمانَ... ولَقَدْ هَمَمْتُ أن أكونَ ثالثَهما... فإنْ رأيتَ يا أميرَ المؤمنين قَتْلَ يزيدَ، فبالله عليك ابدأ بولَدى أيوبَ واقْتُلهُ قَبْله.. ثم اجعَلْ يَزيدَ ثانياً... واجعلنى إنْ شِئْتَ ثالثًا... والسَّلامُ».

أخوك سليمانُ بنُ عبدِ الملك

وعَنْدَئذٍ.. أمَرَ الخليفَةُ بِفَكِّ القيودِ مِنْ أيديهما... ثم أعطى ابنَ أخيهِ ثَلاثينَ ألفَ درهمَ... وأعطى يزيدَ بنِ المهلبِ عشرينَ ألفَ درهمٍ...

وَرَدَّ الاثنينِ إلى أخيهِ سُليمانَ بن عبدِ الملكِ بكُلِّ إعزازٍ وإكرام.

وأرسلَ الخليفةُ للحَجَّاج خطابًا يَقولُ فيه: «اترُكْ يَزيدَ بنَ المهلَّبِ يَعشْ فى سَلام، وإياكَ أنْ تُحَدِّثنى فى أمرهِ مَرَّةً أخرى بَعْدَ اليَوْم».

١٣- الفلاح الصالح

ارتفعتْ حـرارةُ الجوّ، وانقطَعَ نزولُ المَطرِ مُدَّةً طويلة، وَجَـفَّتِ الأرض... خافَ الناسُ عَلى زرْعهم، فَلا يَجدون شيئاً يأكلونَهُ وَيَشْرَبونه، ولا تَجِدُ أغنامُهم ومَواشيهم وجِمالُهم ما ترعاهُ فتموت.

نَظرَ الناسُ إلى السماء... لم يجدوا فى السمـاءِ أىَّ سحابٍ يُبَشِّرُ بنزولِ المطر... حَزِنَ الناس، وأخـذوا يَدْعون ربَّهُم أنْ يَمْنَحَـهُم المطر... ثم قالَ أحـدُهم: «سأذهبُ إلى القريةِ القريبَة فَلَدَىَّ هناك بعضُ الأعمالِ المهِمّة...».

سار الرجلُ فى الصَّحراء... كانَ الطريقُ خـاليًا مِنَ الناس. وفى أثناء سَيْره... نَظَرَ الرجُل إلى السَّماء، فـشاهَدَ السُّحُبَ قد بدأتْ تَتَجَـمَّع .. تكاثَرتِ السحب وتكاثَرَت ... غَطَّت السـماءَ سـحـابةٌ كبـيـرة سوداء... فَـرِحَ الرجلُ عندمـا رأى هذه السحـابة الكبيرة. أدركَ الرجلُ أنّ السماءَ ستمطرِ قـريبًا... فجأةً... سمِعَ الرجلُ صَوتًا يأتى مِنَ السَّمـاءِ ويقول: «اسْقِ حديقـةَ صالح». لم يصـدِّق الرجلُ أذنيه... استَـمَر الرجلُ فى سيـرِه وهو يفكِّرُ مِنْ أينَ جاءَ هذا الصـوْت... سَمِعَ الرجلُ الصَّوتَ يأتى مـرةً أخرى مِنْ بَيْنِ السحابِ ويقول: «اسقِ حديقةَ صالح».

تَوَقَّفَ الرَّجُلُ ، وَنَظَرَ حولَه فلمْ يَجِدْ غـيرَ صحراءَ واسعة. قـال الرجلُ لنفسه: «يا إلهى! لا يوجَدُ غَيرى فى هذه الصَّحراء... هل يأتى الصوتُ مِنْ بيْن السحابِ حقًا؟! أو أننى أتخيَّل هذا؟!».

سَمِـعَ الرجلُ الصـوتَ مـرةً ثـالثةً يقـول: «اسقِ حـديقةَ صـالح»... تَجمـعتْ سُحُبٌ كثــيـرة، وبدأ المطـرُ يـنزِل... ويـنزِل... ويــنزِل... نـزَلَ مَطـرٌ

غـزير... قـال الرجل «سبحـانَ الله.. الصـوتُ ما زالَ يأتي مِنْ بَيْنِ السَّحـاب.. أنا متأكِّدٌ مِنْ ذلك».

جاءَ ماءٌ مِنْ كُلِّ مَكان وأخَـذَ يَلْتَقي في مَجْرى واحِد.. كَبـرَ المجرىَ شيئًا فـشيئًا، وأصبحَ جَـدْوَلاً ماؤُه سريعُ الجـريان.. سارَ الرجلُ خلفَ ماء الجـدولِ ليَرَى إلى أينَ يذهب.. أخيرًا وصلَ الرجلُ إلى حديقةٍ بهـا فلاح.. كانَ هذا الفلاحُ يحوِّلُ الماءَ إلى زرعِهِ ليَسْقِيَه.

اقترب الرجلُ منَ الفلاح، وَسَألَهُ عَن اسمه. قـال الفلاح: «اسمي صالح». فتعجب الرجل عـجبًـا شديداً.. سَـألَهُ الفلاح: «لمـاذا تسألُ عَن اسـمي؟» فَقَصَّ الرجُل علـيه حكايةَ الصـوتِ الذي سَمِـعَهُ يأتي مِـنْ بينِ السحـاب ويذكُرُ اسـمَه... وكـيفَ أمْطَرَ السـحاب، وكـيف سارَ المـاءُ إلى حـديقتـه... ثم سَـألَ الرجلُ الفلاح: «قُل لي أيهـا الفلاحُ الطيِّب، ماذا تصنعُ بحديقتك؟». أجابَ الفلاح: «سأقولُ لك ما دُمتَ سألتني! .. بَعْدَ أن أبيعَ زرعي، وأحْصُلَ عَلَى المال أتصَدَّقُ بِثُلُثه للفقراءِ والمساكين، وآكُلُ أنا وعيالي بثُلث، وأنفقُ الثلُثَ الباقيَ عَلَى صيانةِ حديقتي والعناية بها».

عنـدئذ قـالَ الـرجلُ للفـلاح: «الآنَ أدركْتُ لمـاذا جـاء الصـوتُ مِنْ وراءِ السحـابِ يقـولُ: اسْقِ حديقةَ صـالِح. أيهـا الفـلاحُ الطيِّب، باركَ اللهُ فـيكَ وفي أرضِك وزَرْعِك».

١٤- سيف الله والقائد الرومى

بَدَأت المـعركـةُ بَيْنَ الرُّوم والمسلمـين.. اشـتدَّ القـتالُ بَيْنَ الفـريقين، وارْتَفَـعتْ أصواتُ المقـاتلين. كانَ جَيْشُ الرّوم كَبيراً وسـلاحُهم كَثيراً، وكانَ جـيشُ المسلمين صَغيراً، وسـلاحُهُم قَليلاً.. قَبْلَ أن تَنْتَهى المـعركةُ طَلَبَ أحَدُ كِبارِ قـادةِ الرومِ مقابلةَ خالدِ بن الوَليد. كان اسمُ ذَلِكَ القائدِ الرُّومى (جُرْجَةَ).

خَرَجَ خالدٌ لمقابلة جُرْجَةَ. وعندَما اقتَرَبَ خالدٌ منْ جُرْجَةَ نظَر جُرْجَةُ إليه وقالَ : «يا خالدُ ، قُلِ الصِّدقَ .. هَلْ أنْزَلَ اللهُ عَلى نبيِّكُم سَيْفًا مِنَ السَّماء، وَهَلْ أعطاكَ النبىُّ ذلكَ السَّيفَ لِتُقَـاتِلَ به فَتَنْتَـصرَ دائمـاً؟» قال خـالد: «لا». قال جُـرجَةُ: «فَـمَا سَـببُ تَسْمِـيَتِكَ سَـيْفَ الله إذَنْ؟!». فأجـابَ خالدُ بنُ الوليـد: «عنَدما هَدانى اللـهُ للإسلام أرْسلنى الرسولُ ﷺ مَعَ جـيشِ المسلمين، واشتـركتُ فى معركة مُـؤتَةَ واستطعتُ أن أنقذَ جـيشَ المسلمين مِنَ الـهزيمة.. وَسُرَّ الـرسولُ ﷺ بما فَعَـلتُ . قالَ وهو يَحكى أخبارَ المعـركةِ لأصحابِه: «ثُمَّ أخَذَ رايَةَ المسلمين سَـيْفٌ من سُيوفِ الله. هَذا سَبَبُ تَسميتى بِسيفِ الله». قالَ جُرْجَةُ: «يا خالد.. إلى أىِّ شىء تَدْعُون؟». قالَ خالد: «إلى شهادَةِ أنْ لا إلهَ إلاَّ الله، وأنَّ مُحمداً عَبْدُهُ وَرَسُولُه». قالَ جُرْجَة : «ما مَنْزِلَةُ مَنْ يَدْخُلُ الإسلامَ اليومَ؟». قالَ خالدٌ: «مَنْزِلَتُنا جَميعًا واحدةٌ. كُلُّنا سَواءٌ فى الإسلامِ يا جُرْجَةُ.. غَنِيُّنا وفَـقيرُنا، قَـوِيُّنا وضَعـيفُنا، أوَّلُنا وآخـرُنا. كُلُّنا سَواءٌ. قلَ جُـرْجَةُ: «هَلْ يَسْـتَوى مَـعكم مَـنْ دَخَلَ اليـوم فى دينِكُم؟ هَـلْ لِمَن يَدْخُلُ الإسـلامَ الآنَ مِـثلُ مــا لَكُمْ مِنَ الأجْرِ؟ وَهَلْ يَكونُ لَهُ مِنَ الثـوابِ ما لكُم؟». قال خـالدٌ: «نعم. يَسْتَـوى مَعَنا، بَلْ هُوَ أفْضَلُ مِنّا». قـالَ جُرْجَةُ: «وكَـيْفَ يَسْتَوى مَـعَكُمْ وَقَدْ سَبَقْـتُموهُ فى الإسـلام؟». قالَ

خالدٌ: «لَقَدْ أسْلَمْنا ورَسولُ الله ﷺ حَيٌّ بيْننا، تنْزِلُ عليه أخبارُ السماء، فيخبرُنا بها.. وكُنا نَرى منْهُ العَجائِبَ، فوَجَبَ علَى مَن رأى ما رأيْنا مِنَ الرسولِ الكَريم، وسَمِعَ ما سَمِعْنا أنْ يُسلِمَ. أمّا أنتُم.. فلَمْ ترَوْا ما رأيْنا.. ولَمْ تَسْمَعوا ما سَمِعنا منَ الآيات. فَمَنْ دَخَلَ الإسلامَ مِنكُمْ وَهو صادقٌ كانَ أفْضَلَ منّا، وأجْرُهُ أكْبَر». قال جُرْجَةُ: «هَلْ كُنْتَ صادِقًا مَعِي، ولَم تَخدَعْني؟ قالَ خالد: «نعَم، كُنتُ صادقًا معَكَ، ولَمْ أخدَعْكَ».

اقْتَرَبَ جُرْجَةُ مِنْ خالد وقالَ : «علِّمْني الإسْلامَ». اتّجَهَ خالدُ بنُ الوليدِ إلىَ خَيْمَته وَمَعَهُ جُرْجَةُ، وهَناك قَدَّمَ لهُ بَعْضَ الماء فاغْتَسَلَ، ثم صَلَّى جُرْجَةُ ركْعَتَين. دَخَلَ جُرْجَةُ الإسلامَ، وانْتَقَلَ مِنْ جَيشِ الرّومِ ليُقاتلَ في جَيشِ المسلمين.

هَجَمَ الرومُ علَى المسلمين، فَركبَ خالدٌ حِصانَهُ وأسْرَعَ نَحْوهُم كالسَّهْم.. لَمْ يكُنْ وَحْدَهُ هذه المرَّةَ، كان مَعَهُ جُرجَةُ. كانت المعْركَةُ شَديدةً، وكانَ القتالُ بالسَّيف والرُّمْح.. استَمَّر القتالُ منَ الصَّباح إلى غُروبِ الشمس.. وكانَ جُرْجَةُ يُقاتِلُ بشَجاعَة وقُوة... وَفجأةً ضَرَبَهُ أحَدُ الجُنودِ بالسيفِ فَسَقَط علَى الأرضِ، ومَات شهيداً.

١٥- سر الأسئلة الثلاثة

فى أوَّلِ ظهورِ الإسلامِ، عِنْدَمـا بَدَأَ الناسُ يَدْخُلون فى دينِ اللهِ، ازدادَ ضيقُ الكُفارِ بمحـمدٍ ﷺ وبما يلقـاهُ الإسلامُ مِن انتشـارٍ سريعٍ، وفى ذَلكَ الوقتِ، كـانَ يعيشُ فى (يثربَ) - وهى التى عُـرفَتْ بعد الهجرة باسم (المـدينةِ المنورة) - كان يعيشُ فـيها كثيرٌ منَ اليهودِ، وهُمْ أهْلُ كتابٍ، وعِنْدَهُمُ (التوراةُ) . فأرسلتْ قُرَيش وَفْدًا إلىَ أحبارِ اليهـودِ وعلمائِهـم فى يثْربَ، وحَكَوْا لَهُم قـصَّةَ ظُهـورِ (محمـد)، وما يقـولُه منْ أنَّهُ رسولُ الـله، وأنّهُ يَتَلَقَّى الوَحْىَ مِنَ السَّمـاءِ، وقالوا لهم: «أنـتُمْ أحبْارُ الـيهودِ، فـيكُم عُلماء، وأنتُم أهْلُ الكتابِ الأوَّلِ، وعِندكُم ما لَيسَ عِندَنا مِنْ عِلْمِ الأنبـياءِ.. فأخبِرونا ما رأيُكمْ فى صاحِبِنا (محمد)؟».

فَقَالَ لَهُم أحبارُ اليهودِ: «اسألُوهُ عَنْ ثلاثَةِ أشياءَ، فَإنْ عرَفَها وأخبركُمْ بِها فَهُوَ نَبِىٌّ. قُولوا لَهُ:

- أخْبِرنا عَنْ فِتْيَةٍ ذَهَبُوا فى الدَّهْرِ الأوَّلِ والزمنِ القديمِ قَدْ كانتْ لَهُم قِصَّةٌ عَجَبٌ.
- وَعَنْ رَجُلٍ كانَ طَوّافًا، قَدْ بَلَغَ مشارِقَ الأرضِ ومغارِبَها.
- وأخبِرْنا عَنِ الرُّوحِ ما هِىَ؟».

فَرَجعَ وفدُ قُريشٍ مِنْ يَثْرِبَ وَسَألُوا الرسولَ ﷺ عنِ هَذهِ الأشياءِ الثَّلاثَة، فأنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسولِهِ سُورةَ الكهفِ، وفيها إجابةٌ عَنِ الأسئلة الثلاثة: فـيها قصةُ الفتية أصحابِ الكهفِ، الذين أوَوْا إلى الكهف هَرَبًا منَ الظُّلم ، وناموا فى الكَهْفِ، ومَـعَهُمْ كَلْبُهُمْ، أكْثَرَ مِنْ ثَلاثمائة سَـنة، فلَمّا استيقظُوا، وَجَدُوا أن بَلْدَتَهمْ قد تَـغَيَّرَتْ، وتَعَجَّبَ الناسُ مِمّا حَدَثَ لَهُم.. إلى آخرِ القصةِ.

وفيهـا قصّةُ ذي القَرنَيْن، الذى طافَ فـى مشارقِ الأرضِ ومغاربِهـا، وقابَلَ الناسَ الذين طَلَبُـوا منهُ أنْ يَبْنِىَ سَـدّاً بَيْنَهُمْ وبَيْنَ يأجـوجَ ومَـأجوجَ ليَـأمَنُوا شَـرَّهُمْ وأذاهُم، وكَيْفَ بَنَى لَهُمْ هَذا السَّدَّ، إلى آخرِ قصة ذى القَرْنَيْن.

- وأمّا سُؤالُهُم عَنِ الرُّوحِ فقالَ اللهُ تعالى لنبيِّه ﷺ:

بسم اللهِ الرحـمن الرحـيم ﴿ وَيَسْـأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّي وَمَـا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [سورة الإسراء: ٨٥].

وأخبَرَ رسولُ الله ﷺ أهلَ قُرَيْشٍ بِكُلِّ ما سَألوا عَنْهُ.. وَعَرفُوا أنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ، وأنَّ الإسلامَ حَـقٌّ، وتَأكَّدُوا مِنْ كُلِّ شيءٍ ولكنَّهُم استمـرّوا فى كُفْرِهِم ، إلى حين، بِسَبَبِ العِنادِ والاستكبارِ، والكبرياءِ الكاذبَةِ وَحُبِّ الدنيا!

١٦- الرزق الحلال

بَحَثَ رَجُلٌ فَقيرٌ فى بَيْته عَن طعَامٍ يُفْطِرُ بِه فَلَمْ يَجِدْ شيئًا. اسْتَعَدَّ الرَّجُلُ للخُروجِ فقـالَتْ لَهُ زَوْجَتُهُ: «هَلْ ستَتْرُكُنا دونَ طَعام؟». قـالَ الرجلُ: «أنا ذاهبٌ إلى الكَعبة، لأطوفَ بِها سَبْعَةَ أشواط، وأدْعُوَ اللهَ أنْ يرزُقَنا؛ فَهُوَ خيْرُ الرّازقين».

تَوَجَّهَ الرَّجُلُ مُزْدَحمًا بِالحُجَّاج، فَلَمّا أتَمَّ الرّجُلُ الطَّوافَ، وَصَلَّى، وَهَمَّ بالخُروجِ منَ الحَرَمِ عثَرت قَدَمُه بكيسٍ عَلَى الأرضِ، فـانْحَنَى ليـأخُذَهُ، وبَحَثَ الرجلُ فيـه فَوَجَدَهُ مَمْلوءاً بالدنـانير. نَظَرَ الرجُلُ حَوْلَهُ عَلى زَوْجته فَرحًا مُتَهَلِّلاً، وقالَ: «انظُرى - يا زَوْجَتى - ماذا رَزَقَنى اللهُ اليوم؟! كيسًا بِه مائةُ دينار». قالت الزَّوْجَةُ عَلَى الفَوْر: «اذهَبْ إلَى المَكانِ الّذى وَجَدتَ فيـه الكيسَ، هَذا الكيسُ لَيْس لَنا، وإنَّمـا يَخُصُّ صاحِبَهُ الذى فَقَدَهُ».

سَمعَ الرجُلُ كـلامَ زَوجَته، وَخَرَجَ منَ البيْت قاصداً الكعبةَ، وَمَعَهُ كـيسُ النقود، وفى الطريقِ قالَ لنفسِه: «زَوجَتى علَى حَقّ، فَدينُنا أمرَنا بالأمـانَة، والأمانةُ تَدعُونا أنْ نَرُدَّ الأشياءَ لأصْحابها».

وَصَلَ الرَّجُلُ إلى المكانِ الذى عـثَرَ فيـه علَى كِيسِ النُّقودِ، فَـسَمِعَ أحَدَ الحُـجاجِ ينادى: «يا أهْلَ الله، منْ وَجَدَ كيسًا به نُقود؟!».

تَقَدَّم الرجُلُ مِنَ الحاجِّ وَسَألَهُ: «هَلْ تَعْرِفُ ما بِه يا حاجّ؟». فأجابَ الحاجّ: «نَعَم، بالكيسِ مـائةُ دينار». عندئذ قَـدَّمَ الرَّجُلُ الكيس للحـاجِّ، وقـالَ: «صَدَقْتَ، خُـذْ هذا الكيسَ، إنَّهُ كيسُكَ الذى تبحثُ عَنْه». نَظَرَ الحـاجُّ فى الكيس فَوَجَدَ الدنانيرَ كاملَةً، فـقـالَ للرجُل: «لا يا أخى، هَذا الكـيسُ لَكَ أنْتَ وَمَـعَـهُ كـيسٌ آخَـرُ بِهِ ألفُ دينار».

تعجَّبَ الرجلُ مِـنْ كَلامِ الحاجِّ، وقـالَ: «أعطيتُكَ كيسَك، فَتَقـولُ إنَّهُ لى ، وتعطينى زيادةً عَلَيـه كيسًا آخـرَ بِه ألفُ دينار! إنى لا أفـهمُ شيئاً مـما تقـول!». قال الحـاج: «أعطانى هذه الدنانـيرَ رَجُلٌ مـؤمنٌ مِنْ أهلِ مِـصـرَ، وأوْصانـى أنْ أضَعَ بعضَـهـا فى الحَـرم، فإذا عَثَـرَ عليـها شَـخْصٌ، وَرَدَّهَا إلىَّ، أعطيتُـهُ باقى الدَّنانير». زادَتْ دهـشة الرجُلِ مِنْ كـلامِ الحـاجِّ وَسَـألَهُ: «لكنْ، لمـاذا طَلَبَ الرجُلُ المـؤمنُ منْكَ ذَلكَ؟!».

أجابَ الحاجّ: «لَقَـدْ أرادَ الرجُلُ المؤمنُ أن يَتَصَدَّق بهذا الـمبلغ، وكانَ يَوَدُّ أنْ تكونَ الصَّـدَقَةُ مِنْ نَصـيبِ رَجُلٍ أمـين، وأَنتَ رَدَدْتَ الأمانَة، وَمَنْ يَـرُدُّ الأمانةَ فَـهُوَ أمـين، والأمينُ - يا أخى - يأكُلُ ويَتَصَدَّقُ، وبِذَلكَ تكونُ صَدَقَةُ صاحبِ المالِ مقبولة».

أعْطَى الحاجُّ الرجُـلَ الفقيـرَ الكيسَيْن، حَـمَلَ الرجُلُ الفقـيرُ الدنانيرَ إلى زَوْجَـتِه، وَقصَّ عَلَيها الحكايةَ.. فَـرِحَت الزوجَةُ وقالَتْ لِزَوْجِها: «أمَّا الآنَ، فـهذا المالُ حَلالٌ لَكَ ولعيالِـكَ، هَيَّا اذهَبْ فاشْتَرِ لنا مـا نأكُلُه، فَأولادُنا جائعون، ولا تَـنْسَ أن تَتَصدَّقَ منه، فَهُناكَ مَنْ هُمْ أحوَج إلى المالِ منّا».

قالَ الرجُلُ وَهُوَ يَنْصَرِفُ إلى السّوق: «سأفْـعَلُ يا زوجتى، الحمدُ للهِ الذى هَدانى إلى طريقِ الخير، ورزَقَنى هَذا الرِّزْقَ الوَفير!».

١٧ - الفارس الملثم

كان فارسٌ مُسلمٌ اسمُهُ ضِرارُ بنُ الأزورِ يستعدُّ للخروجِ لحربِ الرومِ مَعَ القائدِ خالدِ بنِ الوَليدِ. وكانَ ضِرارٌ يُحدِّثُ أختَهُ خَوْلَةَ عمَّا يَفْعلُهُ المُجاهِدون المُسلمونَ مِنْ بُطولاتٍ مَع أعدائهم.

طَلَبتْ خَوْلَةُ مِنْ أخيها أنْ تَخْرُجَ مَعَ نساءِ المسلمين اللاتى يَخْرُجنَ مَعَ الجَيْشِ يَحْمِلنَ الزّادَ والماءَ، ويُجَهِّزْنَ الطَّعامَ، ويُعالِجْنَ الجَرْحَى، ويُضَمِّدْنَ جِراحَهُم.

بَدأتِ المعاركُ بينَ المسلمين والرُّوم. كانَ المسلمونَ ينتَصرونَ فى كثيرٍ منها، وكانوا يتعرضُون للهَزِيمة فى بعضها. وفى إحدَى المعاركِ وَقَعت خَولةُ بنت الأزورِ فى أسرِ الرُّوم مَعَ بعض زميلاتِها مَن المجاهدات.

كانتِ المعَاركُ ما تَزالُ دائرة قَريبا مِنَ المعَسكرِ الذى فيه الأسيراتُ المسلمات. جَمَعَتْ خَولةُ صاحباتها الأسيرات واتفقت مَعهنَّ عَلى خُطةٍ للهروب من المُعسكَر. مَرَّتْ ساعاتٌ، وغادَرَ المعَسكَرَ بَعضُ الحُراسِ الرّوم لنَجْدَةِ جَيْشِهم فى المعْرَكَة، وَوَجَدَتْ خَوْلةُ بنتُ الأزور الفرصة مناسبَةً، وقالتْ للمجاهدات المسلمات:

«يا بناتِ العَمِّ، ذَهَبَ أكثرُ الحراس الروم إلى مَيدانِ المعركةِ لمساعدة جنودهم، وَجاءَ الوقتُ لتنفيذ الخطة. إن الموتَ أشرفُ لنا من الفَضيحة والعار، هَيَّا نَهجُمْ على الحراس الباقين هجمةً قويةً وَنَقتُلُهُم، وَنَنْجُ بأنفسنا من هَذا الأسر! واللهُ معَنا!».

اقتَلعَت النِّساءُ أعمدَةَ الخيامِ والأوتادَ الخشبية واندفعنَ نحوَ الحُراسِ يَضْرِبْنَهُمْ بِقُوَّةٍ وَعُنْفٍ. ذُهلَ الحُراسُ مِنَ المفاجأة وخافُوا وَهَربوا أمامَ شَجاعَةِ خَولَةَ وَمَنْ مَعَها مِنَ المجاهِداتِ.

أسرَعَت الـمجاهدَاتُ إلى مُـعسكَر خَـالد بنِ الوليد، وَلمّـا رَأى جنودُ المسلـمين النّساء يَعُدْنَ مِنَ الأسرِ كَـبَّروا وَهَتَفوا: «اللهُ أكبرُ.. اللهُ أكـبرُ»، ثُمَّ هَجَموا عَلى الرومِ وَهَزَموهُمْ، وَفَرَّ الرُّومُ إلىَ حِصْنٍ آخَرَ من حصونِهم يَحْتَمُون فيه.

تَقـابَل ضِـرارٌ وَأختُـهُ خَـولَةُ، وَقَـصتْ عَليـه حكايَةَ أسْـرِهنَّ، وَكَـيفَ اسـتطاعتِ المُجاهِدات التَّغلُّبَ عَلى الحُراسِ، فامتَلأ قَلْبُهُ بِالحَماسِ.

وجاء مَوْعدُ مَعْركَة جَديدَة، وَهَجَمَ ضرارٌ عَلَى جُنودِ الرُّومِ وقَتَلَ مِنْهُمْ عَدَداً كبيراً، مِنْ بينْهم ابنُ قائـد جَيْشِ الرُّوم. سَمِعَتْ خَـولةُ أخبارَ بُطولَـة أخيها فَـهَتَفَتْ بأناشـيدِ النَّصرِ، لكنْ! لَمْ تَتِمَّ فَرْحـتُـها! فقدْ جاء أحدُ جنودِ المسلمـينَ وَقَالَ إنَّ أخاها ضراراً قدْ وَقَعَ في أسرِ الرُّوم.

حَزنَتْ خَولَةُ عَلَى أخـيها، واسودَّتِ الدُّنيا في عَـينَيْها. وَصَمَّـمَتْ عَلَى أمرٍ خَطيرٍ. تَسَلَّلَتْ خَوْلَة مِنْ صُفوفِ النِّساءِ في حذر دُونَ أنْ يراها أحَدٌ.

دُهِشَ جُنودُ المـسلمينَ وَهُـمْ يرَوْنَ بَيْنَهُمْ فارسـاً مُلَثَّـمًا - قـد غطَّى رأسه بقطعـة قماش أسود - يَهْجُمُ عَلَى عَسْكَرِ الرُّومِ بِشجَاعَـةٍ وَقُوَّةٍ، يَضْرِبِهُمْ بِسَيْفِه، وَيَقْتُلُ مِنْهُمْ عَدَدًا كَبيراً.

تَعَجَّبَ جُنودُ المـسلمينَ مِنْ هَذا الفارس الّذي لمْ يُشـاهدوهُ مِنْ قَبْلُ، مَن هُوَ؟ مِنْ أيْنَ جاءَ؟ أينَ كانَ قَبْلَ هَذه المَعْركَة؟!

لَمْ يَسْتَطِعْ أحَـدٌ أنْ يَعرِفَ حَقيقَـةَ هَذا الفارِسِ؛ لأنَّهُ كانَ يُخْفي وَجْـهَهُ، وَلا يُظْهِرُ غَـيْرَ عَـيْنَيْه. ظَنَّهُ المُـسلمـونَ قائدَهُمْ خَـالدَ بنَ الوليد، لَـكنَّهُمْ رَأوْا خالداً بَيْنَهُمْ فَـزادَ عَجَبُهُم. وفَكَـروا.. منْ يَكون؟ قالَ الجنودُ المُسلمونَ لِخالد: «انظُرْ أيُّهـا الأميرُ، لَقَدْ

هَجَمَ هَذا الـفـارسُ المُلَثّمُ عَـلى عَـسكَرِ الرُّوم، يَـطْعَنُ يَمـينًا وَشِـمـالاً، ولا يُـبـالِي بالموْت». نَظَرَ خـالدٌ إلى مَيْدانِ المَعْـركَة، وأدْرَكَ أنَّ النّصْرَ قَريبٌ، فَـصاحَ فى جُنودِ المُسْلمين: «أيُّها الرِّجالُ اهْجُموا جَميعًا ورَاءَ هَذا الفارسِ البَطَل».

وانطَلَقَ الرجالُ وَخالدٌ أمامَهُم، فإذا الفارسُ يَهْجُمُ فى سُرعَة وَشَجاعَة والمسلمونَ من خَلفه يَشُقّونَ صُفوفَ الرّوم، ويُفَرِّقونَ جُـموعَهُم. وَصَلَ الفَارسُ المجهولُ أخيراً إلى حَيثُ كانَ خالدُ بنُ الوليد، وَقدْ غَطَّى رداءَهُ الدّمُ. صاحَ خالدٌ فى الفارسِ الملَثَّم: «ما أشجَعَكَ أيُّها الفارسُ! لَقَدْ قاتَلْتَ أحسَنَ قِتالٍ فى سَبيل الله، اكشِفْ عَنْ وَجْهك لنَعْرِفَ مَنْ تكون؟!».

لَمْ يَكْشف الفارسُ عَنْ وَجْهِـه، وانصَرَفَ مِنْ غَيرِ أنْ يَقولَ كَلِمَـةً. وَسَألَهُ خالدٌ فى لَهْفَة: «وَيْحكَ! لَقَدْ شغَلْتَ قُلوب النّاس، فَقُلْ لَنا مَنْ أنْتَ؟!».

وَوَقَفَ الفارسُ فى مـكانه، وَظَلَّ صامتًـا لا يتكَلّمُ ولِثامُـهُ عَلَى وَجْهِـه لا يُظهِرُ إلاَّ عَيْنَيْـه، طَلَبَ خالدٌ مِنَ الفارسِ أنْ يَتَكلَّمَ، وأخـيراً تَكَلَّمَ الفارسُ، سَمِعَ خـالدٌ صَوْتَ الفارس! لَمْ يَكُنْ صَـوْتَ رَجُلٍ، بَلْ كانَ صَوْتَ امـرَأة. قالَتْ: «لَمْ أجِبْكَ أيُّهـا القائدُ حَياءً مِنْكَ، فـاغفـرْ لى سُكوتِى وَصَـمْتِى، أنا خَـوْلَةُ بِنْتُ الأزْوَر، وكُنْتُ مَعَ النّسـاء فَسَمعتُ بِأسْرِ أخِى ضِرارٍ، فَركِـبْتُ وَحَارَبْتُ مَعَ جُنودِ المُسلمين لأحَرِّرَهُ مِنَ الأسرِ، وأنقذَهُ مِنْ يَدِ الرُّومِ».

سَمِعَ خالد كَلامَ خَوْلَةَ، وَأعْجَـبَتْهُ جُرْأتُها وَشَجاعَتُها وَحُبُّـها لأخيها. ثُمَّ صاحَ فى الجُنود: «سَنَهْجُمُ عَلَى الرُّومِ مَرَّةً ثانيـة لِنُخَلِّصَ ضِراراً - أخا هَذِه البَطَلَة - مِنَ الأسرِ بإذنِ الله».

دارَت المَعْركَةُ بَيْنَ المُسلمينَ وَالرّوم، وَحـارَبَتْ خَوْلَةُ بشَجاعَة وإقدام.. وضَعُفَ الأعداءُ، وألقَوا سـلاحَهُم وَسَلَّموا، وَتَمَّ النَّصْـر للمُسلمين، لَكنَّ خَولَةَ لَمْ تَعْـثُر عَلَى أخيها، وقالَ أحدُ الأسْرَى الرُّوم إنَّ قائدَهُم قَـدْ أخَذَ أخاها ضراراً مَعَه أسيراً إلَى بَلْدَة قَريبة وَجَعَلَ عَلى حِراسَته مائةَ فارس؛ لأنَّ ضراراً قَتَلَ ابْنَهُ.

أمَرَ خـالدٌ بأنْ يَذْهَبَ مائـةٌ منَ الرِّجالِ الشُّـجعْانِ إلَى البَـلْدَة ليَفُكُّوا أسْـرَ ضرار.. انطلقَ الجنودُ المائة وَمَـعَهُمْ خولة حَـتّى وَصَلوا إلىَ مُعَسكَرِ الرُّومِ فى البَلْدَة وَعَـرفوا أنَّ ضراراً أسيرٌ عنْدهُم. هَجَمَ المُـسلمونَ عَلَى الرُّوم، وَبَرَزَ الفارسُ المُلَثَّمُ منْ جَديد يَضْربُ بَسَيْفـه رقابَ الأعْداء، ويُلْقى الخَوْفَ فى قُلوبهم.. وانتْهَت المَعْركَـةُ، فَقَدْ فَرَّ جُنودُ الرُّومِ ، وَوَقَف ضرارٌ يَنْظُرُ حَوْلَهُ فى دَهْشَة وإعجاب بالفارسِ المُلَثَّمِ الذى كانَ سَبَبًا فى النَّصْرِ.

وَقَبْلَ أنْ يُفيقَ ضرارٌ منْ دَهشَته قَفَزَ الفارسُ المَجهولُ منْ فوق ظَهْرِ حصانه، وأقْبَلَ عَلَى ضرار، وَكَـشَفَ عَنْ لثامه. عـنْدئذ صاحَ ضرارٌ: «خَـوْلة! هَذه أنْت؟! لا أصَدِّقُ عَيْنَيَّ! عَـرَّضْت حَياتَـك للمَوت من أجْلى يا أختـاه؟!». قالَتْ خَوْلـةُ وَهىَ تَشُدُّ عَلَى يَدَيْه: «وَهَلْ للْحَياة بَعْدَكَ قيمَةٌ يا ضرار؟!».

١٨- البَخيـــل

كانَ بالمدينة المنوَّرة رَجلٌ فقيرٌ اسمُـه ثَعْلَبَةُ بنُ حاطب. وكانَ لثعْلَبَة صديقٌ غنيٌّ، عنْدَهُ مـزارعُ وبسـاتينُ كثيـرةٌ وجمـالٌ وأغنامٌ. كـانَ ثعلبـةُ ينظرُ إلى مَـزارعِ صديقـه وبساتينه الواسعة، وإلىَ إبله وغَنَمه الكثيرة، ويَتَمَنَّى أنْ يكونَ لَهُ مثْلُها جَميعًا.

كانَ ثعلبةُ يحلُمُ بالغنَى والثَّراء، وذاتَ يومٍ جاءَتهُ فكرةٌ، جَعَلَتْهُ يَنْهضُ مِنْ مجْلسه، ويسرعُ إلى المسجـدِ وهو يُحدِّثُ نَفْسَهُ، ويقول: «سأقصدُ الرسـولَ ﷺ فى المسجدِ ليَـدْعُوَ اللهَ أن يرزُقَنى مـالاً، أنا متـأكدٌ أنه لَنْ يَرْفـضَ طلبى ، فَهـوَ عَلى خُلُقٍ عظيم، وَسَوْفَ يَستجيبُ اللهُ تعالىَ دعوةَ الرسول».

دَخَلَ ثَعْلَبَةُ المَسْجدَ، وَصَلَّى وَراءَ الرَّسول ﷺ، ولَمْ يـنتظرْ. قامَ ثعلبةُ بسُرْعة يَقولُ للرسـول ﷺ : «يا رسـولَ الله، ادعُ اللهَ أنْ يَـرزُقَنى مـالاً!». نظر الرَّسـولُ إلى ثعلبـةَ لحظاتٍ ثم قـالَ: «وَيحَكَ يا ثعلَبـةُ! مـالٌ قليلٌ تؤدِّى شُكْرَه خيـرٌ من مـالٍ كـثيـرٍ لا تطيقُهُ!».

أشـفقَ الرسـولُ ﷺ عَلَى ثَعلَبـةَ، كانَ يَعْـلَم أنَّ المالَ حـمْلُهُ ثقيلٌ ، فـالغَنىُّ عَلَيْـه واجباتٌ كثـيرةٌ نَحْوَ الفقراء والسّائلين والمـساكين، وغيرهم منَ المحـتاجين، وثَعلبة قد يكثُرُ المالُ عندَه، فَيَشْغَلُهُ عَنْ عِـبادَة الله وَشُكْره، ويمتنِعُ عَنْ أداء ما يَجبُ للفقراءِ فَيَغْضَبُ اللهُ عَلَيْه وَيعاقبُهُ.

نَصَحَ الرسولُ ﷺ ثعلبـةَ بالقناعَة، وطَلَبَ منه أن يحمَـدَ اللهَ عَلى ما رزَقَهُ. اسـتمعَ ثعلبة إلى نـصيحـةِ الرسول ﷺ فَرَضِـيتْ نَفْسُهُ، وانصـرَف عائداً إلى بيـته، وهو يفَكِّرُ ويقولُ: «الحـمدُ لله، رزقَنى ما يكفِى نَفقَـتى ونفقَةَ أهلى، الحمـدُ لله وشكراً لرسوله

الكريم!». لكنْ.. مرَّ ثَعْلَبَةُ بجماعة رأى بينهُم صاحبَه الغنيَّ يمشي مُختالاً بملابسه الغاليةِ فخوراً بنفسه، فانْقَلَبتْ حالُه، وَراحَ يُردّد قائلاً: «لا، لا، المال مُهمٌّ! لَوْ كانَ لى مالٌ كثيرٌ لأنفقْتُ منهُ وأنفقْتُ، وبَنَيْتُ، ولبستُ وأكَلْتُ، ووهبتُ، وأصبحتُ مَشهُوراً!».

وفى الصَّباحِ أسْرَعَ ثَعْلَبَةُ إلى المسجد، وَصلَّى وراءَ الرَّسولِ، وبعدَ الصلاةِ تقدَّمَ ثَعلبةُ منَ الرَّسولِ ﷺ وقالَ: «يا رسولَ الله، ادْعُ اللهَ أنْ يرْزُقَنى مالاً». سكتَ الرسول ﷺ قَليلاً، ثُمَّ أخَذَ ينصحُ ثَعْلَبَةَ، لَكنَّ ثعلبةَ لَمْ يصبرْ، أعماهُ حُبُّ المالِ عن كُلِّ شىء، فراحَ يُؤكِّدُ للرسول ﷺ أنهُ سَوفَ يُعطِى الفقيرَ حَقهُ، وللسائل حَقَّهُ، وللمسكين حَقَّهُ، وسيعطى الرسولَ ﷺ ليُجَهِّزَ الجيوشَ للجهادِ فى سَبيلِ الله، ثم أقْسَمَ ثعلبةُ وقال:

«والذى بَعَثَكَ بالحقِّ، لَئِن دَعَوتَ اللهَ فرَزَقَنى مَالاً لأعطينَّ كُلَّ ذى حَقٍّ حَقَّهُ».

عندئذ رفَعَ الرسولُ ﷺ يَدَيْه إلى السماءِ وقالَ: «اللَّهُمَّ ارزُقْ ثَعْلَبَةَ مالاً».

وَبَيْنَما كانَ ثعلَبَةُ عائداً إلى بَيتِه يفكِّرُ فى دُعاء الرسولِ وَيَبْتسم، رأى أعرابيا يسُوقُ عَدَداً مِنَ الغَنَمِ لا يزيدُ عَلى عشرة، وَبَعدْ سُؤالٍ وَجوابٍ اشتَرىَ ثَعلبةُ الغَنَمَ بخمسةٍ وعشرينَ دِرْهمًا، وَمَرَّتِ الأيامُ والأسابيعُ والشهورُ، وتكاثرتِ الأغنامُ ، وأصبحتْ ثلاثين، ثم تسعين! وزادَتْ وزادَت، حتّى اضْطُرَّ ثعلبةُ إلىَ أنْ يبتعدَ قليلاً عَنِ المدينة، وَيَسكُنَ خارِجَها، لِيَجِدَ المراعِىَ التى تكفِى غَنَمَهُ.

أهمَلَ ثعلبةُ صلاة الجماعة التى كانَ يُؤَدِيها مَعَ المسلمين وراء الرسول ﷺ خَمْسَ مَرات يومِيًا، جَعَلَ يخرُجُ بالغَنَمِ مُبكرا، فلا يُصلّى الصُّبْح بالمسجد، وقُبَيلَ الظُّهْرِ يَعودُ إلى المدينة، فيشترِكُ مَعَ المسلمينَ فى صلاةِ الظُّهْرِ والعصرِ، ثُمَّ يُسْرِعُ إلى

غَنَمِه، فلا يُصَلى المَغْرِبَ والعشاءَ مَعَ الجماعة!

تكاثَرت غَنَمُ ثَعْلَبَـةَ، تكاثَرَتْ، وتكاثَرَتْ، فاضْطُرَّ ثَعلَبَـةُ إلى الابتعـاد عَن المدينة، مَسافةً أطْوَلَ ليجِـدَ المراعِيَ الفسيحة التى تَتَّسعُ لأغنامه الكـثيرة، ولم يَعُدْ قادراً على الذَّهابِ إلى المدينةِ، فـقد قَرر أنْ يقيمَ مَعَ أهلِه بجـوارِ الغنم، ولا يَذهبَ إلى المدينة إلا يومَ الجُمُعَة فقط، ليشتركَ فى الصلاة وراءَ الرسول ﷺ.

وشيئًا، فشيئًا تكاسَلَ ثَعْلَبَةُ عن صلاةِ الجمعةِ أيضًا، وأصبَحَ لا يُصَلّيها.

مَضَت الأيامُ وأرسَلَ الرسـولُ ﷺ رجالاً إلى خارجِ المدينة ليَـجمَعوا زكـاةَ أمْوَال المقيمـين حَولَها، وأعطاهُم كتابًا بذَلكَ إلى ثَعْلَبَةَ ، لكنَّ ثعلبةَ رفَضَ أنْ يُقَـدِّمَ شَيْئًا.. ثارَ، وقالَ لجـامِعِى الصَّـدَقَة: «لا، هَذِه ضَرِيبـةٌ يَريدُ الرسولُ أنْ يأخُـذَها منْ مالى بلا حَق».

صَرَفَ ثَـعلَبَةُ الرِّجـالَ بخُشـونَة منْ بَيْتِـه، فعـادُوا للمدينة وَهُمْ يَشْـعُرون بالـحزنِ والأسَفِ، ورآهُمُ الرسـولُ ﷺ مُقْـبِلين، فـقالَ قَـبْلَ أنْ يُحَـدِّثُوهُ بخَبَـرِ ثَعْلَبَـةَ: «يا وَيْحَ ثعلبـة! يا وَيْحَ ثعلبة! يا وَيْحَ ثـعلبة! ونزَلَ جـبريلُ - عليـه السلام - بالوَحْى، يُـقْرِئُ الرسولَ آياتٍ مِنْ سورةِ التوبةِ تَصِفُ ثَعْلَبَة بأنّه بَخيلٌ مُنافقٌ، وتَوَعَّدَهُ بالعَذابِ.

عَلِمَ ثَعْلَبَةُ بالخَبَـر، فخافَ خَوْفًا عظيماً، وَحَمَـلَ الصَّدَقَةَ إلى رَسولِ الله ﷺ، لكنَّ الرسولَ ﷺ لم يَقْبَلْهـا، وَرَفَضَ أنْ يأخُذَ منْهُ شيئاً. زادَ خـوفُ ثعلبةَ، وزاد نَدَمُهُ، وراحَ يُلْقى التُرابَ عَلَى رأسِه، وقالَ لَهُ الرسول ﷺ: «هذا جزَاءُ عَمَلِكَ.. يا ثَعْلَبَةُ!».

وما زالَ المـسلمون حَـتَّى الآن يَقْرَأونَ قـصَّةَ ثَعْلَـبَةَ فى سورةِ الـتوبْة، ويَتَـذكَّرونَ حكايته، وحكايةَ المنافقين ويَقُولُونَ: «يا وَيْحَ ثَعْلَبَةَ! يا وَيْلَ المنافقين!».

١٩- منقذ الكرام

كانَ خُـزَيْمَةُ مَشهـوراً بيْنَ الناسِ بِالكَرَمِ وعَمَلِ المـعروف مَعَ أصدقائه وجـيرانه، وكُلٍّ مَن يَقْصِدهُ. وإذا طَلَبَ أحـدُهم منه شيئًا قَدَّمَهُ لَهُ راضـيًا مَهْما كانَتْ قـيمتُه. ظَلَّ خزيمةُ عَلَى هَذا الأمْرِ حَتَّى انتهَى مالُهُ وساءَتْ حالتهُ.

وكانَ خُـزيمةُ رَجُلاً عَـزيزَ النَّفس، لا يريدُ أن يَمدَّ يَدَهُ لِيَطْـلُبَ مُساعَـدةً من أحَد، فَأغْلَـقَ عليْه بابَه، وأقـام مَعَ زوجتِه وأولادِه، يَعـيشـون عَلَى ما بَقِيَ عِندَهم مِـن طعامٍ ومال.

عَلِمَ عِكرمةُ - والي البِلاد - بما وَصَلَتْ إليه حالُ خُـزَيْمَةَ مِنْ فَقْرٍ وحاجَة، فَأسِفَ لذلك، وقالَ: «كـيفَ يعيشُ فى فقرٍ وَشِـدَّةٍ مَنْ كانَ فى يَوْمٍ مِنَ الأيامِ يُكْرِمُ الناس مِنْ ماله وطعامه؟!».

عندما جـاء الليلُ أخَذَ عكْرِمَةُ أربعـةَ آلافِ درْهَم، وَوَضَعَها فى كـيس، وَخَرَجَ من بَيْته سراً وقـد أخفَى شَـكْلَه، وسارَ فى الظلامِ حـتَّى وَصَلَ إلى بَيْتِ خزيمـة. وطرقَ البـابَ فلما خـرجَ إليـه خُزيمـةُ ناولَهُ عكْرِمَـة الكيسَ، وقـالَ له: «أصْلِحْ بهذا المـالِ أحوالَكَ».

تناوَلَ خزيمة الكيسَ فوَجَدَهُ ثقيلاً مَمْلوءاً بالدَّراهم، فَوَضَعَهُ عَلَى الأرْضِ وأمْسَكَ بِلِجامِ حصانِ عكرمةَ وسألَهُ «مَنْ أنتَ؟ أخبـرْنى». فأجابَهُ عكرمةُ: «ما جِئْتُكَ فى هذه الساعة المتأخِّرة مِنَ اللّيلِ لتعرفَنى. إنَما حَضَرْتُ لأعطيكَ هَذا الكيسَ، وكَفَى».

فقالَ خزيمةُ: «وأنا لَنْ أقْبَلَ هَذا الكيسَ حتى تُعَرِّفَنى بنفسك وتخبرَنى مَنْ أنتَ؟».

قالَ عكرمـةُ: «إذا كُنتَ مُصمِّـمًا عَلَى مَعْـرِفَتى، فأنا مُنْقِـذُ الكرامِ مِنْ غَدْرِ الأيام». وأسَرعَ عكرمةُ بالانْصراف.

دَخَلَ خـزيمةُ عَلَى زوجـته وبَشَّـرَها بِخَبَـرِ المالِ الذى جـاءَهُما مِنْ مُنْقِـذِ الكرام،

ففـرحَت. وفي الصبـاح خرجَ خـزيمةُ إلى الناسِ، وَدَفَعَ مـا عليْه منْ دُيون، واشـترَى طَـعامًا لبيتْه. أمَّا عـكْرمَةُ فقد رَجَعَ إلى منزله، ووجدَ زوجتَه قَلقَةً مَهمومة. ولما سألَتْهُ عَنْ سَبَبِ خروجه متنكِّراً في منتصَفِ الليلِ ومَـعَهُ المال حاولَ عكرمةُ أنْ يُخْفيَ عنها الحقيقـةَ في أوَّلِ الأمر، لكنَّها كَرَّرَت السؤال، ووعدَتْهُ أن تكتُـمَ الأمرَ، وتجعلَهُ سرا بينهما. فأخْـبَرها عكرمَةُ بالقصَّة، وحكَى لَها ما حَـدَثَ بيْنَهُ وبيْنَ خُزَيْمَةَ، وطلبَ منها ألاَّ تذكُرَ ذلك لأحَد أبَداً.

مَرَّت الأيامُ، وتحسَّنَتْ حالُ خزيمةَ، وعادَ غنيا مرةً أخْرَى. وَذَهَبَ لمقابَلَة صَديقه الخليفة، وَحَكَى خـزيمةُ له قصَّتَهُ مَعَ «منقذ الكرامِ من غَدْرِ الأيّام». وتَـعَجَّبَ الخليفةُ وَوَدَّ لَوْ عَرَفَ اسم ذلك الرجلِ! وقالَ لخزيمة: «والله لَو عَـرَفْتُ اسمه لكافأْتُهُ أحسَنَ المكافأة على مَـعْروفه وكَـرمهِ». ثم قالَ الخليـفةُ لخزيمة: «لَقَـدْ ولَّيْتُكَ حاكـماً عَلَى البـلادِ مكانَ عكْرمَـة، فـاذْهَبْ إليه الآن فـوراً، وحـاسِبْهُ عَـلَى ما حَـصَّلَ مِنْ أمـوالِ المسلمين، وما أنْفقَ منها».

عادَ خُزيمةُ إلى بلده واليًا عَليها، وعندمَا عَلم عكرمةُ بِخَبَرِ ولاية خزيمةَ عَلى البلادِ بَدَلاً منه خَرَجَ في جَمْعٍ من أهْلها يستقبلُه.

دَخَل خزيمةُ في مَـوكبٍ فَخْم، وَقَصدَ دارَ الإمارة. ولما جَلَسَ فيـها، وتَسَلَّمَ أمورَ الحُكم أمَرَ بمـحاسَبَة عكرمَـةَ، فَوَجَدَ عليـه أموالاً عَجزَ عَن سـدادها، ولَمْ يتمكَّن منْ دَفعها، واعْتَذَرَ لعكرمَةَ، وقالَ : «لَيْس عنْدى ما أدفَعُهُ».

طَلَبَ خزيمـةُ منْ جُنوده أن يُقيِّدوا عكرمـةَ بالسَّلاسِلِ، ويَضَعوهُ في السـجنِ حَتَى يَدفَع ما عَلَيْه مِن أمْوال.

دَخَلَ عكرمةُ السـجنَ دونَ أنْ ينطقَ بِكَلِمَةٍ واحدة، ودونَ أنْ يُوَضِّحَ لخُـزَيمةَ، أيْنَ ذَهَبَت الأموالُ الناقصة؟

ولمّـا علِمَتْ زَوْجةُ عـكرمَةَ بِسـجنِ زَوْجـها حَـزِنَتْ حُـزنًا شديداً. ومَـرَّت الأيامُ

وساءَتْ حـالُها، فلمْ تستطِع الزّوجةُ أنْ تَصْبرَ طَويلاً، فنادَتْ خادمَـها، وقـالَت لَها: «اذْهَبى إلى بيْتِ الوالى خـزيمةَ، وقـولى لَهُ، عندى كَلمـةٌ لَك، لا أحبُّ أن يسمَـعَهـا غَيْرُكَ. وعندَما ينصرفُ مَنْ معَه، ويصبحُ خزيمةُ وَحْدَه قولى لَهُ: ما هَكذا يكونُ جَزاءُ مُنْقِـذ الكرامِ من غَدرِ الأيّام!». وذَهـبَت الخادمُ إلى بيْت خُـزَيمـةَ، وأبلغَتـهُ ما قـالَتْ سيِّدَتُها ، فقالَ منزعجًا: «واحَسرتاه! أهو عكرِمَة؟!». ثم قَام منْ مجلسه، وأرْسَلَ إلى عُظَماء البلاد فَجَمَعَهُم، وركبَ حصانَه، وسارَ بهمْ إلى السِّجن.

وَدَخَلَ خزيمَـةُ السِّجْنَ هو وَمنْ مَـعَهُ، فَوَجَـدَ عكرمةَ أصْفَـرَ اللَّوَن، متعَبًا، مقـيَّدًا بالسّلاسل، فَـأقْبَلَ عليه يُـقَبِّلُ رأسَهُ، ويعـتذرُ لَهُ عَمَّـا حَدَث منه، فَرَفَعَ عكرمـةُ رأسَه، ونَظَرَ إلى خزيمةَ بعينَيْنَ مليئتَـيْن بالدُّموع، وقالَ له: «وما الذّى دَعاكَ إلىَ أنْ تفعلَ كُلَّ ذلك الآنَ يا خزيمة؟». فـأجابَه: «كَرَمُ أصْلِكَ، وَحُسْنُ خلقكَ، وَسُـوءُ مكافأتى، لقد قابَلْتُ الإحسانَ بالإساءَة وَأنا لا أدْرى!».

فقالَ لَهُ عكرمة: «يَغْفرُ اللهُ لَك».

وَطَلَبَ خزيمةُ الحدّاد وأمَرَهُ أن يَفُكَّ قيودَ عكـرمة، ويَقُيِّدَهُ بَدَلَهُ. ولما سَألَهُ عكرمةُ عَن السَّبَب فى هَذا الطَّلَب الغَريب أجابَهُ خزيمةُ: «أريدُ أنْ يُصيبَنى منَ الحَبْسِ والقَيْدِ مثلُ مـا أصابَك». فـأقْسَمَ عكْرِمَـةُ عَلَيْه ألاَّ يفْـعَلَ ذَلكَ الأمرَ، وصَمَّمَ عَـلَى أنْ يَخرُجَ خزيمةُ من السِّجْنِ مَعَهُ.

خَرجَ الاثنانِ فى مَوْكبٍ من النّاسِ حَتَّى وَصَـلا إلى دار خُزَيْمَةَ، فَشكَرَ لَهُ عكْرِمَةُ، واستأذَنَهُ فى الانصراف إلى بيْته، فـقالَ لَهُ خزيمة «لَنْ تَذْهَبَ إلى دارِكَ - يا عكرمةُ - حَتَّى تَزولَ عَنْكَ آثارُ الحَبْسِ والقيد».

استضَافَ خُـزَيْمَةُ عكرمَةَ فى دارِه، وأعطاهُ أفْضَلَ ثيابِه ليلبَسَهـا، ثم اختارَ لَهُ أجْوَدَ حِصانٍ ، وَوَدَّعه أحْسَنَ وَداع.

٢٠ - راية السلام

فى أثناء الفتوحِ الإسلامـيَّةِ حاصرَ جَيْشُ المسلمينَ مَدينةَ سَـمَرْقَنْد. وكانتْ مدينةً حصينَةً ومَنيـعةً، يَصعُبُ عَلَى أىِّ جَيْشٍ أنْ يَدْخُلَها مَـهما كانَ قَويا، بِسَبَبِ حُـصونِها وَقلاعِـها. ولَمّا طـالَ الحِصارُ فَكَّرَ قـائدُ جَيشِ المُـسلمينَ قُتَـيْبَةُ بْنُ مُـسْلِمٍ فى خُطَّةٍ لِيَدْخُلَ المدينَةَ.

وبَدأَت الخُطَّةُ بِأنْ دَخَلَ عَدَدٌ مِنْ جُنودِ المُسلِمينَ الشُّجْعـانِ فى هَيْئَةِ تُجّارٍ يَبيعونَ سِلَعًا وبَضـائِعَ. وبَعْدَ أنْ صارُوا داخلَ المدينةِ هاجَـموا الحُصونَ والقِـلاعَ، واستولَوا علَيها، ثُمَّ فَتَحوا الأبْوابَ، فَدَخَلَ بَقِيَّةُ جَيْشِ المُسلمينَ، واستسلمَ عِندئذٍ أَهْلُ سَمَرقَنْدَ وسَقَطت المدينةُ فى أيدى المسلمين.

اجتَـمَعَ أهلُ سَمَرقندَ عندَ كَـبير الكَهَـنَةِ، وَسَألوهُ النَّصيـحَةَ، فقـالَ لَهُمْ: «سأطالبُ بمُحـاكَمَةِ قائدِ جَـيْشِ المُسلمين». قالَ أحَـدُهُم: «ومَن سَيُوافِـقُنا علَى مُحاكمَـةِ قائدِ جَيْشِ المُسلمين، وَهُم المنتَصرون؟!». فأجابَ كَبيرُ الكَهَنَةِ: «خَليفَةُ المسلمين عُمَرُ ابنُ عبدِ العَزيزِ، فَهُوَ رَجُلٌ عادلٌ».

وأرسلَ كَبيرُ الكَهنَةِ أحَدَ أعـوانِهِ إلىَ الشّامِ، وَقـابَلَ الخليفَةَ عُـمَرَ بن عبـدِ العزيز، فأحـسنَ استـقبـالَهُ، واستَـمعَ إليه جـيِّدًا، وقالَ لَـهُ: «اطمئَنَّ، واهْدَأْ بالاً؛ فـالإسلامُ لا يَعْرِفُ غَيْرَ العَدْلِ».

وأعطاهُ خِطابًا إلى الوالى حاكِمِ المسلمين فى سَمَرْقَنْدَ.

ذَهَبَ كبـيرُ الكَهَنةِ بالخطابِ إلىَ حـاكِمِ سَمَرْقَنْدَ المـسلم. فَقَـرأَهُ فَوَجَدَ الخَليـفَةَ يَأمُرُهُ بأنْ يَختارَ أحَدَ القُضاةِ المُسلمينَ لِيحكُمَ فى الشكْوى التى قَدَّمَها كَهَنَةُ سَمَرقَنَد.

اختارَ الوالى قاضيًا يَثِقُ فيه، وَحَدَّدَ مَوعِدًا للمُحاكَمَةِ. استَمَعَ القاضى إلى كَبير الكَهَنَةِ الذى تَكَلَّمَ عَنْ أهْلِ سَمَرقَند وقالَ: «نَحْنُ نَعْرِفُ أنَّ دينَكُمْ قَدْ حَدَّدَ ثَلاثَةَ أمورٍ لِنَشرِ دَعْوَتِه، أولها: الدَّعوةُ إلى الدُّخولِ فى الإسلام، فَمَنْ لَمْ يَقْبَلْ فَعلَيْه دَفْعُ الجِزْيَةِ مُقابِلِ توفيرِ الأمنِ والدِّفاعِ عَنْه، وهَذا هُوَ الثانى، فإنْ رَفَضَ الدُّخولَ فى الإسلامِ ورَفَضَ دَفْعِ الجزيةِ يأتى دَوْرُ الحَرْبِ والقتالِ. ولكنَّ جَيْشكُمْ لم يَفْعَلْ هَذا، وَدَخَلَ مَدينَتَنا بالخَديعة». فَسأل القاضى قائدَ المُسلمين: «هَلْ هَذا ما حَدَثَ؟». أجابَ القائدُ المسلمُ «أصْلَحَ اللهُ القاضى، إنَّ الحَرْبَ خُدْعَةٌ، وهَذَا البَلَد أنْقَذَهُ اللهُ عَلَى أيدى جُنودنا وَهَداهُ إلَى طَريقِ الحَقِّ والنّور». فقالَ القاضى: «وَهَلْ خَيَّرْتُمْ أهلهُ بَين واحدَةٍ مِنْ ثَلاث: إمّا الإسلام، وإما الجِزْيَة، وإلاَّ فالْحَرْب؟». قالَ القائدُ: «لا، أيُّها القاضى».

عندئذ أصدَرَ القاضى المُسلمُ أعْجَبَ حُكمٍ فى التاريخ. قالَ: «قَدْ حَكَمْتُ عَلَى جَيْشِ المسلمينَ أنْ يَخرُجَ مِنْ سَمَرْقَند ويُسَلِّمَ البِلادَ إلى أهْلِها، ثُمَّ يَعرِضَ عَلَيْهِم الدُّخولَ فى الإسْلام، فإنْ لَمْ يَقْبَلُوا فالجزيَةُ، وإلاَّ فَلْيُعْلِنْ عَلَيْهم الحربَ والقتالَ».

وتَمَّ تَنْفيذُ الحُكْم، وانسَحَبَ جَيْشُ المُسلمينَ مِن سَمَرقَنْد، وعادَت المدينةُ إلى أهلها، ودُهِشَ الجميعُ أمامَ هَذا الحُكْمِ الذى يَدُلُّ عَلى عَدالَةِ الإسْلام. وكانَت النَّتيجةُ أنْ دَخَلَ أهْلُ سَمَرْقَنْدَ فى الإسلام، وعادَ جُنودُ المُسلمين إلَيْها، لا جُنودًا مُحاربين، بَلْ إخوة مُتَحابّين، يُعانِقُ كُلّ واحدٍ مِنْهُمْ أخاهُ مِنْ أهْلِ سَمَرْقَنْد، ويُهَنِّئه بِالدُّخولِ فى الإسْلامِ، تَحْتَ رايَةِ الحُبّ والسَّلام!

٢١- رجع بخفى حنين

كانَ حُنَيـن إسكافيًا يَصنَـعُ الأحْذيَةَ والخفـافَ، ويَبيـعُها للـنّاس. وذاتَ يوم جاءَهُ أعرابىٌّ لِيَشترىَ منهُ خُفَّين. لم يَقْبلِ الأعرابىُّ المَبْلغَ الذى عَرضَهُ حنَين ثمنًا للخُفَّين، وأرادَ أنْ يُساومَـهُ لِيُنْقص الثَّمَنَ، أطالَ الأعـرابىُّ المُساومَـةَ حتّى ضايقَ حُـنينا، وبَعْدَ مُناقشة طويلة انصَـرفَ الأعرابىُّ مِنْ غَيْرِ أنْ يَشترى الخُفَّـيْن، فَغَضبَ حُنَين، وأرادَ أن يَغيظَهُ، وَفَكَّرَ لَهُ فى خُدعَة يَخْدَعُهُ بِها، وَيَسْخَرُ منهُ.

رَكبَ الأعرابىُّ جَـمَلَه واستَـعَدَّ للعودَة إلى قـبيلته. أسـرَعَ حُنين إلى المكانِ الذى سَيَمُـرُّ منهُ الأعرابىُّ، وَوَضَعَ أحَدَ الخُـفَّيْن فِى وَسَطِ الطَّرِيقِ، وَسارَ مَسـافَةً ، ثُمَّ ألقى الخُفَّ الآخَرَ فى مكانٍ أبْعَدَ قَليلاً.

مَـرَّ الأعرابىُّ - وهو عـائدٌ - بمكانِ الخُفِّ الأوَّل، أوْقَفَ الأعـرابِىُّ جَـمَلَهُ، وَنَزلَ وأمسكَ الخُفَّ وَنَظَر إليـه متعجـبًا وقالَ: «ما أشْـبَهَ الخُفَّ بِخُف حُنين الإسكافى! يا خَسارَةَ! ماذا يُفيدُ هَذا الخُفُّ وَحْدَهُ؟! لَوْ كانَ مَعَهُ الخُفُّ الآخَرُ لأخَذْتُهما».

تَرَكَ الأعرابىُّ الخُفَّ ، ورَكِـبَ جَمَلَهُ، واستـمَرَّ فى طريقه حـتى وَصل إلىَ الخُفِّ الثانِى! نَزَلَ الأعرابِى مِنْ فوق الجَمَلِ وأمسكَ الخُفَّ الثانِىَ، وَقَلَّبَهُ فِى يَدِه وقالَ:

«يا للعَجَب! هَذا الخُفُّ أيضًا يُشْبِهُ خُفَّ حُنَيْن تَمامًا، يا لَسوء الحَظِّ! لماذا تَرَكْتُ الخُفَّ الأوَّل؟! لَوْ أخَذْتُهُ مَعى، لَنَفَع الخُفّانِ واستَـفدتُ مِنهُما، يَنْبَغى أنْ أرْجع فوراً، وَأحضرَ الخُفَّ الأولَ!».

وكانَ حُنَين يُراقِبُ الأعرابِىَّ مِنْ خَـلْفِ تَلٍّ قريب لِيَنْظُرَ ماذا سَيَفْـعَلُ . فَلَمَّا رآهُ قَدْ مَشَى لِيُحْضِرَ الخُفَّ الأولَ أسرَعَ حُنين وَساقَ جَمَلَهُ بِما عَلَيْه مِنْ بِضاعَةٍ واختَفى.

رَجَعَ الأعرابىُّ يـحْملُ الخُفَّ الأوَّلَ، فَوَجَـدَ الخُفَّ الثانىَ عَلَـى الأرضِ ولم يَجِدْ جَمَلُه. حَمَلَ الخُفَّيْن وَعادَ إلى قَبيلَته.

تَعَجَّبَ الـقَوْمُ عندَما رَأوا الأعـرابِى يَرْجعُ إليهم مـاشيًـا عَلَى رِجْلَيْه، ولَيْسَ راكِـبًا جَمَلَهُ. سَألَهُ قَومُهُ: «بماذا جئْتَ منْ سَفرِكَ؟».

أرَى الأعْرابىُّ قَومَهُ الخُفَّيْنِ وأجابَهُمْ «جئتُ بِخُفَّى حُنَيْن!» ضَحكَ القَوْمُ وسَخروا منَ الأعرابىِّ الذى خابَ مَسْعاهُ، وَخَسِرَ جَمَلَهُ، وَعادَ إليْهمْ لا يَحْملُ إلاَّ خُفَّىْ حُنَيْن! وظَلُّـوا يُرَدِّدون: «رَجَعَ بِخُفَّىْ حنين!».

٢٢-السائل الأول

تزوَّجَتْ امرأةٌ منْ تاجرٍ غنيٍّ، لَهُ مَحَلٌّ كَبيرٌ يَبيعُ فيه القُماشَ والملابسَ.وكانَ بَخيلاً جِـداً. وذات يَوْم اشـترى الرَّجُلُ دَجاجَـةً. وَطَلَبَ منْ زَوْجَتِـه أنْ تَطْبُخَـها لِيـتناوَلا جُزْءاً منها علَى العَشـاء. وبَيْنَمَا كانَ الزَّوْجـانِ يَتَـناوَلانِ طَعامَ العشـاء سَمعـا طَرْقًا عَلَى البـابِ، وَفَتَحَ الزَّوْجُ البَـابَ، فَـوَجَدَ رَجُـلاً فَقـيراً يَطْلُبُ بَعْضَ الطَّعـامِ لأنَّهُ جائعٌ. رَفَض الزَّوْجُ أنْ يُعْطِـيَهُ شيْئًا، وَصَاحَ بِه وَقَالَ لَهُ كَلامًا قاسيًا وَطَرَدَهُ. فَقَـالَ لَهُ السَّـائلُ: «سامَـحكَ اللهُ يا سَـيِّدى، فَلَوْلا الحـاجَـةُ الشَّـديدَةُ والجُـوعُ الشَّديدُ، مـا طَرَقْتُ بَابَكَ!».

لَمْ يَنْتَظِر الرَّجُلُ أنْ يُكْمِل السَّائلُ كَلامَهُ، وَأغْلَقَ البَـابَ بِعُنْفٍ فِى وَجْهِه، وَعادَ إلَى طَعامِـه. قالَت الزَّوْجَـةُ «لماذا أغْلَقْتَ البَابَ هَكَذا فى وَجْـه السَّائل؟». فـقَالَ الزَّوْجُ بغَضَب: «وَماذا كُنْت تُريدينَ أنْ أفْـعلَ؟». فَقَالتْ: «كانَ منْ الممْـكنِ أنْ تُعْطيَهُ قطْعَةً منَ الدَّجـاجَة، وَلَوْ أخَـذَ جَناحَـيْهـا يَسُدُّ بهـا جُوعَـه!». قـالَ الزَّوْجُ: «أعْطيه جَناحًـا كاملاً؟! أجُنِنْتِ؟!». قالَت الزَّوْجَةُ: «إذَنْ، قُلْ لَهُ كَلمَةً طَيِّبَةً!».

وَبَعْـدَ أيّامٍ ذَهَبَ التَّاجِـرُ إلَى مَـتْجَـرِه، فَـوَجَدَ أنَّ حَـريقًا قَـدْ أحْـرَقَ كُلَّ القُمـاشِ والمَلابسِ، وَلَمْ يَتْرُكْ شيْئًا. عادَ الرَّجُلُ إلى زَوْجَته حَزينًا وَقالَ لَها: «لَقَدْ جعَلَ الحَريقُ المَحَلَّ رَمادًا، وَأصْبَحْتُ لا أمْلكُ شيْئًا. قَالَت الزَّوْجَةُ: «لا تَسْتَسْلمْ للأحْزانِ يا زَوْجى واصْـبِرْ عَلَى قَـضـاء الله وَقَدَرِه، ولا تَيْـأسْ منْ رَحْـمَة الله، وَلَـسَوْفَ يُعَـوِّضُكَ اللهُ خَيْرًا». لَـكنَ الرَّجُلَ قالَ لزَوْجَته: «اسْـمَعى يا امْرأة، حتّى يأتى هَذَا الخـيرُ اذْهَبى إلَى بَيْت أبيكِ؛ فَأنا لا أسْتَطيعُ الإنْفاقَ عَلَيْك!». وَطَلَّقَ الزَّوْجُ زَوْجَـتَهُ، وَلَكنَّ الله أكْرمَها

فَتَزَوَّجَتْ مِنْ رَجُلٍ آخَرَ كَرِيمٍ يَرْحَمُ الضُّعَفاءَ، وَيُطْعِمُ المَساكِينَ، وَلا يَرُدُّ مَحروماً وَلا سائلاً.

وَذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَما كانَتِ المَرْأَةُ تَناوَلُ العَشَاءَ مَعَ زَوْجِها الجَديد، دقَّ البابُ فَنَهَضت المرأةُ لِتَرى مَنِ الطّارِق وَرَجَعَتْ وَقالَتْ لِزَوْجِها: «هُناكَ سائِلٌ يَشْكو شِدَّةَ الجوعِ وَيَطْلُبُ الطَّعامَ» فَقالَ لَها زَوْجُها: «أَعْطيه إِحْدَى هاتَيْن الدَّجاجَتَيْن، تَكْفينا دَجاجَةٌ واحدَةٌ لِعَشائنا، فَلَقَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْنا، وَلَنْ نُخَيِّبَ رَجاءَ مَنْ يَلْجأَ إِلَيْنا». فَقالَتْ: «ما أكرمَكَ وَأَطْيَبَكَ، يا زَوْجي!».

أَخَذَت الزَّوْجَةُ الدَّجاجَة لِتُعْطِيَها السَّائِلَ، ثُمّ عادَتْ إِلى زَوْجِها لِتُكْمِلَ العَشاء وَالدُّموعُ تَملأُ عَيْنَيْها. وَلاحَظَ الزَّوْجُ عَلَيْها ذَلِكَ، فَقالَ لَها في دَهْشَةَ: «ماذا يُبْكيك يا زَوْجَتي العَزيزة؟». قالت: «إِنَّني أَبْكي من شِدَّةِ حُزْني!». فَسَأَلَها زَوْجُها عَنِ السَّبَبِ فَأَجابَتْهُ: «أَنا أَبْكي لأَنَّ السّائِلَ الذي دَقَّ بابَنا مُنْذُ قَليلٍ، وَأَمَرْتَني أَنْ أُعْطِيَهُ الدَّجاجَةَ، هُوَ زَوْجي الأَوّلُ!».

ثُمَّ أَخَذَت المَرأَةُ تَحْكي لِزَوْجِها قِصَّةَ الزَّوْجِ الأَوَّل البَخيل الّذي أَهانَ السّائِلَ وَطَرَدَهُ دُونَ أَنْ يُعْطِيَهُ شَيئًا وَأَسْمَعَهُ كَلامًا لاذِعًا قاسِيًا.

فَقالَ لَها زَوْجُها الكَريمُ: «يا زَوْجَتي، إذا كانَ السَّائِلُ الذي دَقَ بابَنا هُوَ زَوْجَكِ الأَوَّلَ فَأَنا السَّائِلُ الأَوَّلُ!».

٢٣- ذكاء وإسلام

كانَ لحاتمِ الطائيِّ - أشْهَرِ كُرَماءِ العَربِ فى الجاهلية - وَلَدٌ اسمُهُ عَدِىٌّ.. وابنةٌ اسمُها سَفانَةُ. وكانَ عَدِىٌّ عَدُوا للإسلام في ذلك الوقت. فَأرسَلَ الرَّسولُ ﷺ بَعضَ الجُنْدِ بقيادةِ عَلِىِّ بن أبى طالبٍ - رضِىَ اللهُ عَنْهُ - إليه. عَلِمَ عَدىٌّ بأنَّ المُسْلمينَ قادمُونَ إلى قبيلته فهربَ إلى الشام. أسرَ عَلِىُّ بنُ أبى طالبٍ - رضِىَ اللهُ عَنْهُ - كُلَّ مَنْ وَجَدَهُ مِنْ أهْلِ عَدِىٍّ، وساقَهُم هُوَ وَجنودُه إلىَ رسولِ الله ﷺ، رجالاً ونساءً، فَلَمّا وَقَفَ الأسْرَى أمامَ الرسولِ الكريمِ ﷺ قامَتْ سَفانَةُ بِنْتُ حاتم، فقالَتْ: «هَلَكَ الوالِدُ، وغابَ الوافدُ، فإنَّ أبى كانَ سيِّدَ قَوْمه، يَفُكُّ الأسيرَ، وَيَقْتُلُ الجانىَ، وَيَحْفَظُ الجارَ، وَيَحْمى الشَّرَفَ، وَيُفَرِّجُ عَنِ المَكْروب، وَيُطْعمُ الطعامَ، وينشُرُ السَّلامَ، ويُعينُ عَلَىَ مصائِبِ الزّمانِ، وما جاءَهُ أحَدٌ فى حَاجَة فَردَّهُ خائبًا». سَكَتَ الناسُ جميعًا وتساءلوا: «مَن المتحدثةُ؟». فقالَت: «أنا سَفانةُ بِنْتُ حاتمِ الطّائىِّ».

أعجبَ الرَّسولُ ﷺ بذكاء سفانَةَ وَحُسْنِ قولها، وَقالَ: «هَذه صفاتُ المُؤْمنِ حقًا، لَوْ كانَ أبوكِ مُسْلمًا لَترَحَّمْنا عَلَيْه، أطْلقوا سَراحَها، فإنَّ أباها كانَ يُحبُّ مَكارِمَ الأخْلاقِ». ثُمَّ قَالَ ﷺ «ارْحَموا عَزيزَ قَوْمٍ ذَلّ». قالَتْ سَفانَةُ: «أوَتَأذَنُ لِى أنْ أدْعُوَ لَكَ؟». فأذنَ لَها الرَّسولُ ﷺ بالكَلامِ، وطَلَبَ ممَّنْ حَوْلَهُ أنْ يُنْصتوا لَها جيِّدًا.

فقالَتْ سَفانَةُ: «أصابَ اللهُ ببرِّكَ مَواقعَهُ، وَلا جَعَلَ لَكَ إلىَ لَئيمٍ حاجَةً، وَلاَ سَلَبَ نَعْمَةً عَنْ كَريمِ قَوْمٍ إلا جَعَلَكَ سَبَبًا فى ردِّها عَلَيْه!».

وأعادَ رسولُ الله ﷺ سَفانَةَ مُعَزَّزَةً مُكَرَّمَةً إلى قَوْمها، فَأسْرَعَتْ سَفانَةُ إلَى أخيها عَدِىٍّ وقالَتْ له: «يا أخِى، اذْهَبْ إلَى هَذا الرَّجُلِ قَبْلَ أنْ تَصلَ إليكَ يداهُ، وتَقَعَ فى

قَبْضَـته، فإنّى قَـدْ سَمعْتُ هَدْيًا ورَأيًا، ورَأيْتُ خصـالاً وَصفات تُعْجـبُنى، رأيْتُهُ يُحبُّ الفَقيرَ، ويَفُكُّ الأسيرَ، ويَرْحَمُ الصَّغيـرَ، ويَعْرِفُ قَدْرَ الكَبير وما رَأيْتُ أجْوَدَ ولاَ أكْرَمَ منهُ، فَـإنْ يكُنْ نَبـيـا فـاسْبِقْ إلى الإسـلامِ يكُنْ لَكَ فَـضْلُ السّـابِقـين، وإنْ يَكُنْ ملِكًا فَستَعيشُ فى عزِّ مُلكهِ».

استَـمَع عَدىٌّ إلىَ أخـته، وَفَكَّرَ طَويـلاً فى قَولهـا، وكانَ يَعْرِفُ ذكـاءَها وَفطْنَتَـها، وَأدْركَ أنّها لا تَقُـولُ إلاَّ حقًّـا، فأسْرَعَ إلىَ الرَّسـولِ ﷺ وأعْلَنَ إسلامَـهُ. ثم أصبَحَ مِنَ خيرَةِ الصَّحابَةِ رضى الله عنهم.

وكَذَلكَ أسْلَمَتْ سَفانةُ، وَصارَتْ منَ المسلمات المؤْمِنات.

٢٤ - زرقاء اليمامة

منذ سنوات بعيدة، بعيدة جـدًا، كانَ يسكُنُ أرضَ اليمامة قبيلتان كـبيرتان قويّتان، تقومُ بينَها حُروبٌ كثيرة. وظهرَتْ في إحدَى القبيلتيْن فَتاةٌ صَـغيرةٌ، كانَ نَظَرُها قويا، تَستَطيعُ أنْ تَرَى بعيْنها منْ مسافاتٍ بعيدة، بعيدة، ولذلكَ سمّاها الناسُ زَرْقاءَ اليمامة.

فرِحَ أهلُ القبيلةِ بالفتاة، فقد كـانَتْ تساعِدُهُم في الحروب. تَقفُ فَـوْقَ جبَلٍ عالٍ وتنظرُ في اتجاهِ أرضِ الأعداء، وتَرَى جـيشَهُم قادِمًا منْ بعيد، قَـبْلَ أن يَصِلَ بيومَيْن، فتخبـرُ رجالَ قبيلتها فـيحملُون السّلاح، وينتظرون في القلاع، وعندَمـا يقتربُ رجالُ قبيـلةِ الأعداء، يَنْقَضّونَ علَيْـهم ويَهْزِمونَهُم، وفي كُلِّ مَرَّةٍ ينـتصِرُ أهلُ زَرْقاءِ اليـمامَةِ علَى المهاجمين.

وفي آخرِ النـهار تجتـمعُ قبـيلةُ زرقاءِ اليمـامة، وتحـتَفِلُ بالنَّصـر، ويهتِفُ الأولادُ والبناتُ تحيةً لزرقاءِ اليمامة التي كانتَ عَيْناها القويّتان سبَبًا في انتصارِ قبيلتِها.

أدرَك قائد قبيلةِ الأعداء أنَّـهم لَنْ يستَطيعوا هزيمةَ قبيلةِ زرقاء اليـمامة.. عَرَفَ سرَّ زَرْقاءِ اليمـامةِ التي تراهُمْ من مَسافـاتٍ بعيدة، وتخبـرُ جيشَهـا فيَسْتَعـدّون. فَكَّر قائدُ الأعداءِ في حيلةٍ ينتـصرُ بها علَى قبيلةِ زرقـاءِ اليمامة. أخيراً اهتَـدَى إلى خُطَةٍ ماكِرة، جَمَعَ القائدُ جُنودَهُ وقالَ لهم: «على كُلِّ رَجُلٍ أنْ يقطَعَ شجرةً صغيرةً أو غُصْنَ شجرةٍ كبيرةٍ يَحْمِلُهُ بيده ويمشي ويختبئُ خَلْفَـهُ، حَتَّى إذا نَظَرَتْ زرقاءُ اليمامَةِ منْ بَعيد، فلا تَرَى إلا شَجَراً فتظُنُّه مثْلَ بقيةِ الشَجَر، والشجرُ هنا كثيرٌ كما تَرَوْن».

نفَّذَ الجنودُ أمرَ القائد، وَقَفَ الجيشُ عنْدَ مسافةٍ بعـيدة من ديارِ قبيلةِ زرقاء اليمامة ينتظِرُ أوامرَ القـائد، أرْسَلَ القائد رَجُلاً ليَـصْعَدَ على قِمَّـةِ جبَلٍ قريبٍ مِنْ قبـيلةِ زرقاءِ اليمامة ليأتيَ بالأخبار.

نَظَرَتْ زرقاءُ اليمامة إلى الجبلِ وقالَتْ لقَوْمها: «أرَى رَجُلاً فوْقَ الجَبَل، ينظُرُ ناحيتَنا باستمرار. أعتَقِدُ أنَّهُ جاسوسٌ، هُوَ الآنَ ينْحَنى ويُصْلِحُ نَعْله».

بَدَأَ رجالُ الأعداء يَتَحَرَكُون مِنْ خلفِ الجَبَلِ فى اتجاه قبيلةِ زرقاء اليمامة، ومعَ كُلٍّ منهُم شجرةٌ صغيرةٌ يَخْتَبِئُ وراءَها، سارُوا بسُرعةٍ فى اللّيل، وعندمَا طَلَعَ النهار رأتْ زرقاءُ اليمامةِ شَجَراً يتحرَّك، وكأنه يمشى، فقالت لِقَوْمها: «أرَى شجراً يمشى نَحوَنا». ضَحِكَ الناسُ مِنْ زرقاء اليمامةِ وسَخِروا منها، فقالَتْ لَهُم:

«لَعَلَّ وراءَ هذا الشجرِ فُرْسانًا!». لم يهتمَّ القومُ بِما تَقولُ، وقالَ شيخُ القبيلة: «لَيْسَ هُناكَ شجرٌ يمشي ويتحرَّك، عُودُوا إلى بيوتِكم، وعندَ الصباحِ نَرَى جميعًا كيفَ يمشى الشَجَر.. ها.. ها.. ها..».

لكنْ، عنْدما جاءَ الصَّباحُ، وَصَلَ جنودُ الأعداء، وَهَجَموا على قبيلةِ زرقاء اليمامة، وقتلوا وأسَرُوا منهم عدداً كبيراً.

جَلَسَ القائدُ المنتصرُ، وأرْسَلَ يطلُبُ زرقاءَ اليمامة وسألَها: «ماذا رأيت؟». فأخبرَتْه بما ذَكَرَتْهُ لأهْلها: «رأيْتُ رَجُلاً جالسًا فوْقَ الجبلِ يُصْلِحُ نَعْلَهُ، ثم رأيتُ شَجَراً يتحرَّكُ نَحْونا». دَعا القائدُ الرّجُلَ الذى كانَ علَى الجبلِ وسألَه: «ماذا كنتَ تَفْعَلُ فَوْقَ الجبلِ حينَ انحَنَيْتَ؟». قالَ الرجلُ» «انْقَطَعَ نَعْلى، فانحنيتُ أصلحُه» قالَ القائد: «إذَنْ، فَقَدْ صَدَقْتِ يا زَرْقاء، ولم يُصَدِّقْك قَوْمك، ولذَلكَ انتصَرْنا عليكُم هذهِ المرَّة».

قالَ أهلُ زرقاء اليمامةِ: «لَيْتَنا لَمْ نَسْخَرْ منها! ليتنا صَدَّقْناها عِنْدَما حذَّرَتْنا! لَيْتَنا صَدَّقْناها!».

٢٥ - الحيلة الذكية

كانَ عَمْرُو بنُ العاصِ يقودُ جيشَ المسلمين فى طريقِه لفتح مصر، أقامَ عمرو بنُ العاص معسكرَهُ قريبًا من قلعةٍ كبيرةٍ للرومان الذين كانوا يحتلّون مصرَ فى ذلك الوقت. أرسلَ قائدُ الجيش الرومانيّ رسولَه إلى عمرو بن العاصِ يطلبُ منه أنْ يَحْضُرَ إلى القلعةِ ليقابلَه ويَتَكَلَّمَ معه.

وكان القائدُ الرومانيُّ قد اتَّفقَ معَ بعضِ جنودِه أنْ يرمُوا صخرةً كبيرةً فوقَ عمرو ابنِ العاصِ فى أثناء انصرافِه مِنَ القلعةِ بعدَ أنْ يقابلَه. وقفَ الجنودُ الرومانيّون فوقَ سَطحِ القلعةِ، واستعدُّوا لذلك.

حَضَرَ عمرو بنُ العاص، وقابَلَ القائدِ الرومانيّ، وتَكَلَّمَ معه، وَسَمِعَ كلامَهُ. أرادَ عمرو بنُ العاصِ أن ينصرف، وبينما هو فى طريقِه إلى خارجَ القلعة، نظرَ فوقَ سطحِ القلعة، فَرأى حَرَكَةً غريبةَ بَيْنَ الجنود الرومانيّين.

شَعَرَ عمرو بنُ العاصِ بالخَطَر، وَفَكَّرَ بسرعةٍ فى حيلة. وَقَفَ مَرَّةً واحدةً كأنَّهُ تَذكَّرَ شيئًا، ثم رجعَ إلى مكانِ القائد الرومانيّ، وَدَخَلَ عليه يَسيرُ فى خطواتٍ قويةٍ ثابتة. قالَ عمرو: «جاءتْنى فكرةٌ حَسَنَة، مَعى فى الجيش جماعةٌ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ يسألُهُم أميرُ المؤمنين عُمَرُ - رضى الله عنه - دائمًا ويستشيرُهم قبلَ أن يَعْمَلَ أيَّ شيء».

سألَ القائدُ الرومانيُّ بلَهْفَة: «وهل هم مَعَكَ الآنَ فى المعسكر؟». أجابَ عمرو بنُ العاص: هَذا ما جئتُ مِنْ أجله، ما رأيُكَ؟ أذْهَبُ إليهم، وَأحْضِرُهُم لَكَ هُنا، لتقولَ لَهُمْ ما ذكرتَه لى، حتى يفهمُوا الكلامَ كما فَهِمْتُه منك تمامًا، ونسمَعَ رأيَهُم فيه».

فَرِحَ القائدُ الرومانيُّ بهذهِ الفكرة، وقالَ لنَفسه: «كنتُ سأقْتُلُ قائداً واحداً منَ المسلمين، والآن سأقتُلُ القائدَ وجماعةً منْ كبارِ المسلمين». أعطى القائدُ الرومانيُّ إشارةً لجنوده، لينتظِروا، ولا يرمُوا الصخرة.

مَشَى عمرو بنُ العاصِ إلى خارجِ القلعة، وَسارَ مَعَهُ القائدُ الرومانيُّ ليودِّعَه، وهو ينتظر أن يذهبَ عمرو بنُ العاصِ إلى معسكرِ المسلمين، ويرجِعَ وَمَعَهُ أصحابُه الكبار.

ذَهَبَ عمرو بنُ العاص إلى معسكرِ جيشهِ، وَجَمَعَ جنودَه وَذَكَرَ لهم الخُطَّة، كيفَ يَهْجُمون علَى القلعَة؟ وكيف يفتَحون الأبواب؟ وأين يقفُ الحُراس؟ وأين يختبئ جنودُ الرّومانِ؟ وأينَ يقيمُ قائدُهم؟ وفى الصباح قادَ عمرو بنُ العاص جيشَه، وهجموا علَى القلعة، وفتحوا الأبواب ودخلوا، وهزموا جنودَ الرومان، واستولَوْا علَى القلعة.

وبَعد وقتٍ قصيرٍ كَتَبَ اللهُ النصر للمسلمين، وفتحوا مِصْرَ كُلَّها.

٢٦ - علمنى مما علمك الله

قَبْلَ أنْ يبعثَ اللهُ تعالَى مُحَمداً ﷺ بمئاتِ السّنين - ربَّما ثمانمائة سنة - عاشَ لقمانُ الحكيمُ فى ذلكَ الزَّمان.. كانَ الناسُ يسافرون فى طرقٍ صعبةٍ وكانوا يرْكَبون الدَّوابَّ، الخيلَ والبغالَ والجمالَ.

وفى إحدى مناطقِ العُشْبِ بالصّحراء كانَ يعيشُ غُلامٌ أسودُ، أنفُهُ أفْطَسُ، وَشفتاهُ غليظَتان، وفى عينيْه بَريقٌ يَدُلُّ عَلَى ذكاء. كانَ الغلامُ لُقْمانُ يحرُسُ قَطيعًا كبيراً من الغَنَم والإبلِ. وذاتَ يَوم أقْبَلَ مُسافرٌ عَلَى جَمَلٍ، يَبْدو عليه التعب، استقبلَ الغلامُ الرجلَ بوجه بَشوشٍ قائلاً: «مَرحبًا، أهلاً وسهلاً».

أناخَ المسافرُ جَمَلَهُ بجوارِ لُقْمان، وَسَلَّمَ عليه، وقال: «أنا مُتْعَب، وسوفَ أستريحُ معكَ ساعةً». أسْرَعَ الغلامُ إلى صخرةٍ تحتَ شجرةٍ صغيرة، فَحَملَ وعاءً فيه لبنٌ كان قد وَضَعَهُ فى ظِلِّها، وأخذَ بَعْضَ التّمرِ والخُبزِ ، ودَلْوَ ماءٍ، وَرَجَعَ إلىَ الرجلِ، فَقَدَّمَ إليه اللبنَ والماءَ والطعامَ، وقال:

«اشربْ يا سيّدى، وكُلْ باسْم الله الرَّزّاق». تَعجَّبَ الرَّجُلُ منْ شهامةِ الغلامِ الأسودِ ومِنْ حُسْنِ كلامه، وَجَعَلَ يأكُلُ ويقولُ لنفسه: «هذا الغُلامُ عَبْدٌ صالحٌ؛ فَهُوَ يقدِّمُ لى الطعامَ باسم اللهِ الرَّزاقِ، والمؤمِنونَ باللهِ فى هذهِ الأرضِ قليلونَ! تُرَى مَنْ يَكونُ سَيّدُه؟».

سَألَ الرجلُ الغلامَ، وعرفَ أنَّ اسْمَهُ لُقْمانُ، وَأنهُ عَبْدٌ لِشَيْخِ «بنى الحَسحْاسِ».

كانَ لقمانُ كَريمًا كَسيِّده الذى كانَ يساعدُه عَلَى إضافةِ المسافرين.. فيرسلُ إليه - فى المَرْعَى - الكثيرَ منَ الطعامِ. وكانَ لُقْمانُ أمينًا، يعتنى بِغَنم سَيِّده عنايةً كَبيرةً ، وكانَ سَيِّدُهُ يَعْرِفُ أمانتَه ويُقَدِّرُ جُهْدَهُ، يُفَكِّرُ فيهِ كَثيراً، ويحدِّثُ نَفْسَه قائلا: الحمدُ

لله الذى رزقَنى هذا العَبْـدَ المُخلصَ الحكيم، لقد تَكاثَرَتْ غَنَمِى وإبلى، وأصْبَحْتُ مَشْهوراً بين القبائِلِ، بفضلِ لقمانَ وأمانته.

ولم يَنْسَ شيخُ «بنى الحَسْحاسِ» مواقفَ لقـمانَ الحكيمة. فَقَدْ طَلَبَ منْهُ ذاتَ يَوْم أنْ يَذْبَحَ شاةً ويأتيَهُ بأحسَنِ قطْعَتَيْنِ فيها، فَأتاهُ لُقمانُ باللِّسانِ والقَلْب. وأمَرَهُ يوْمًا آخَرَ أنْ يَذْبَحَ شاةً ويَرْمِىَ منْهـا أخْبَثَ قطْعَتَيْنِ فـيها، فَرَمى اللّسـانَ والقَلْبَ. عِنْدئذ تَعَجَّبَ الشيـخُ وسألَهُ: «طَلَبْتُ منْكَ - يا لُقـمانُ - أن تأتينى بأحْـسَنِ قطعَتَـيْنِ فيـها، فأتيـتنى باللسـانِ والقَلْبِ، وَطَلَبْتُ أنْ ترمىَ أخْبَثَ قطْعَـتَيْن فـيهـا.. فَرَمَيْتَ اللِّسـانَ والقَلْب، فكيفَ ذلكَ؟». قـالَ لقَمـانُ: «لأنَّهُ لَيْسَ فى الجسْمِ أفْـضَلُ ولا أطْيَبُ منهمـا إذا طابَا وَحَسُنا، ولَيْسَ فى الجِسْمِ أخْبَثُ ولا أسْوأ منهما إذا خَبُثا وَساءَا».

وجاءَ يومٌ عَـزَمَ فيهِ الشيخُ عَلَى أمْـرٍ، وقامَ مِنْ مَجْلسه، وتَوَجَّـهَ إلى المَرْعَى، ورآه لُقمانُ فَأسْرَعَ لاسْتقبـاله. وَضَعَ الشيخُ يَدَهُ عَلَى كَتِفِ لقمانَ، وقالَ فى عَطف وحَنان: «أنْتَ حُرٌّ يا لُقـمان، وهَذه الغَنَمُ لَكَ نصْـفُها». ثُمَّ عـانَقَ الشيخُ لقمـانَ وَهُوَ يقولُ لَهُ: «لَسْتَ عبدًا! لَنْ تكونَ عَبْدًا لأحَدٍ بَعْدَ الآنَ».

نالَ لقمـانُ حريَّتهُ وكثُرَ مـالُه، واختارَ زَوْجَةً طيِّـبةً صالحةَ، وَرَزَقَـهُ اللهُ منها ولَدًا، فَرِحَ به، وأحْـسَنَ تَرْبيتَـه، كانَ لقمـانُ يُعَلِّمُ الناسَ، وذاتَ يَوْمٍ أقبلَ إلى مـجلسه رَجُلٌ غريبٌ، وسَـألَهُ: «أنت الذى سَقَـيْتَنى لَبَنًا، وأطعَـمتَنى خُـبْزًا وتَمْرًا عِنْدَمـا كُنتَ تَرْعَى الغَنَمَ عِنْدَ بَنى الحَسْحاسِ! قُلْ لى، كَيْفَ صِرْتَ إلى هَذه المنزلة العَظيمة؟».

أجابَ لقمـانُ: «يا أخى، كُلُّ إنسان يَستطيعُ أنْ يكونَ مِـثْلى إذا اتَّقى الله، وأحسَنَ معاملةَ الناسِ، وآمن بأنَّ اللهَ وَحْدَهُ هُوَ الخالقُ والرَّزاقُ».

عِنْدَئذ هَتَفَ الرَّجُل: «عَلِّمْنى مِمَّا عَلَّمَكَ اللهُ يا لُقْمانُ!».

٢٧ - الفتاة الذكيّة

كان شـابٌ من أذكياء العـربِ يرغَبُ فى الزواجِ من فتاة ذكـية مثله. خـرجَ الشابُ يطوفُ بالقبائلِ علَى جمَلِه، وبينما كانَ يسيـرُ فى طريقه قابلَ رجلاً يتّجهُ نحو المكان الذى يقـصِـدُهُ .. سـارَ الـشـابُ والرجلُ مـعًـا. قـال الشـابُ للرجـل «أتحـملُنى أمْ أحْـملُك؟». فـقـالَ الرجل: «يا جـاهلٍ! أنا راكبٌ وأنـتَ راكب. فكيفَ أحـملُكَ أو تحملُنى؟!». سمعَ الشابُ جوابَ الرجلِ، فَسكَتَ ولم يَرُدَّ عليه.

واصل الشابُّ والـرجلُ سيرَهمـا، ثم مَرَّ الاثنانِ بقـريةٍ حولَهـا زرعٌ ناضج، وحانَ وقتُ حَصاده. قال الشابُ يسألُ الرجل: «أترَى هذا الزرعَ أكَلَهُ أصْحَابُهُ أمْ لا؟!». رَدَّ الرجل: «سـؤالٌ عـجيـب! الزرعُ أمامَكَ مـا زال بالأرض وتسـألُ أأكَلَهُ أصحـابُه أمْ لا؟!».

سكَتَ الشابُ ولم يَرُدَّ علَى جواب الرَّجُل.

سار الاثنانِ فى طريقهما، وقابلا جنازةً، فقال الشابُ يسألُ الرجلَ: «أتَرَى صاحب هذا النعشِ حيًا أم ميّتا؟!». أجـابَ الرجلُ: «ما رأيتُ أجهَلَ منك! تَرَى جنازةً فتسألُ أميّتٌ صاحبُها أم حَىّ؟!».

سكت الشـابُ، وسـار مَعَ الرجلِ دونَ أنْ يَرُدَّ عَلَى كـلامه.. أخـيـراً وصلَ الاثنان قريبًا مِن منزلِ الرّجل. طلب الرجلُ من الشاب أن ينزِلَ ضيفًا عليه، فوافقَ الشابّ.

وكان للرجلِ ابنةٌ، فلمـا عرَفَتْ أنَّ لَدَيْهم ضيْـفًا سألتْ أباها عنه، فقـالَ لها أبوها: «إنه مِن أجَهَلِ الناس!». وَحكَى لَها ما دارَ بينهما مِن حديث.

قالت الفتاةُ لأبيـها: «يا أبَتِ! هَذا الشابُ ليسَ جاهلاً كما تقـول! فعندما قال لك:

أتحملُنى أمْ أحـملُك؟! كان يقصد أتُحَـدِّثنى أم أحَدِّثُك؟ حتى نَتَـسلَّى بالحديث فى أثناء السفر. وعندما قال: أتَرَى هذا الزرعَ أكلَهُ أصحابُهُ أم لا؟! فكانَ يَقْصد: هَلْ باعَه أصْحـابُهُ قبلَ أنْ يَحْـصُدُوه وأكلوا بثـمنه أم لا؟! وأما قـولُه عَنِ الميِّت: أمَـيِّتٌ هُوَ أمْ حَيّ؟! فقد قَصَدَ بكلامه هذا: هَل لهذا الميِّت أبناءٌ يُحْيُونَ ذكره بينَ الناسِ أو لا؟!».

فلما سَمِـعَ الرجلُ ما قالتْه ابنتُـه خرجَ إلى الشابّ وأخَذا يَتَحـدَّثان. ثم قالَ الرجلُ للشاب: «أتحـبُّ أنْ أفَسِّرَ لَكَ مـا سألْتنى عنْه؟». قـالَ الشاب: «نَعَم». فـأخذَ الرجلُ يُفَسِّرُ لَهُ أسئلَته والإجابةَ عنها كما سمِـعَها من ابنته. فقالَ لَه الشاب: «ما هَذا كلامُك، فأخـبرْنى مَن صـاحبُه؟». فـقالَ الرجل: «ابْنَتـى». فقالَ الشـابُّ: «أتزوّجُنى ابنَتك؟». فأجابَ الرجلُ: «نَعَم».

وهكذا عثَرَ هذا الشابُّ الذكىُّ عَلَى الفتاةِ التى طال بَحْثُهُ عَنها، وتَزَوَّجَ منها.

٢٨ - أداء الواجب

كانَ في أحَد البلادِ قـاضٍ مَشهورٌ بالعدلِ والذّكاء. انتشر خَـبَرُ القاضي العادلِ في كُلِّ مكان. وصلَ الخبرُ إلى الملك. سَعِدَ الملكُ لأنَّ في مملكته قاضيًا حكيمًا يحكُمُ بيْنَ الناس بالعَـدل. قالَ الـملك: «لا أكتَـفِي بِما أسْـمَـعُهُ عَنْ ذلكَ القـاضي، أريدُ أن أتأكَّدَ بِنَفْسي مِنْ عَدالتِهِ، وأعرِفَ طَرِيقَتَهُ في الحُكمِ بَيْنَ الناس».

لَبِسَ الملكُ ثَوبَ رَجُلٍ عاديٍّ ليتنكَّرَ حَتَّى لا يعـرفَهُ الناسُ. ركبَ الملكُ حصانَهُ، وغادَرَ قَصـرهُ وسارَ في الطريقِ من غيـرِ حُراسٍ ولا جنود. شاهدَ الملكُ شحـاذًا يمدُّ يَدَهُ للناسِ، فسألَهُم أن يَتَـصـدَّقُوا عليـه ببعض المـال. أشْـفَقَ الملكُ عَلَى الشحـاذ، وَطَلَبَ منهُ أنْ يركَبَ الحِـصانَ خلْفَهُ لِينَقْـلهُ إلى المدينة. ركب الشحـاذ خَلفَ الملك وهُو لا يعرفُ.

وَصَلَ الحِـصَـانُ إلى المـدينةِ وعليـه الرجلُ ومن خلفِـه الشـحـاذ. التَـفَتَ الرجُلُ للشَّحاذِ وقال:

«وَصَلْنا المدينة، يمكنُكَ الآنَ أنْ تنزِلَ، لكنْ حاذِرْ أن تَقَعَ عَلَى الأرض!».

أجابَ الشحاذُ بأعلَى صَوْته:

«الحِـصانُ حِـصاني، كـيفَ تطردُني أيهـا الرجل؟! انْزِلْ أنتَ في الحالِ منْ فـوق حِصاني». ثم صَـاحَ الشحاذُ واستغاثَ، فَتجمَّعَ الناسُ حَوْلَهُما. قـال الشحاذُ للناس: «هَذا حصاني». وقال الرجُلُ: «بَلْ هُوْ حِصاني». احتارَ الناسُ ولَمْ يَعْرِفوا أيَّ الرجُلَيْنِ صادِقٌ في كَلامه. قالَ أحَدُ الناس:

«هيَّا إلَى القاضي؛ فهو الذي سيحكُمُ بينَكُما بالعَدل».

أخَـذَ الناسُ الرجُلَ والشـحاذَ إلى دارِ القَـضـاء. كانَ الـقاضى جـالسًـا يَحكُمُ بَينَ الناس. وَقَفَ الرجُلُ أمـامَ القاضى وقصَّ عـليه قـصَّتَـهُ. سَمِعَ الشـحاذُ كـلامَ الرجُلِ، فصاحَ وقالَ للقـاضى: «هذا الرجُلُ كَذّابٌ، الحصانُ حصانى، وأنا أركَـبْتُهُ مَعى لأدُلَّهُ عَلَى الطريق».

قالَ القـاضى: «اترُكا الحـصانَ عِنْدى، واذْهَبـا الآنَ، ثم ارجِعـا إلىَّ صبـاحَ الغَد». انْصَرَفَ الرَّجُلان، فَوَضَعَ القاضى الحصانَ فى الإصطَبْل.

فى صبـاحِ اليومِ التـالى جاءَ الرجلُ والشحـاذُ إلى دارِ القَضاء، نَـهَضَ القاضى مِنْ مَجْلسه وقال للرجُلِ الشحاذ: «اتْبَعانى». سارَ القاضى، ومَشَى خَلْفَهُ الرجُلُ والشحاذ .. وَصَلَ الثـلاثَةُ إلى الإصْطَبْل. دَخَلَ القـاضى والرجلُ والشـحـاذُ الإصطَبْلَ، وكـانَ الحـصانُ مَـوْجوداً. بَقِيَ الثـلاثَةُ فى الإصْطَبْل بعضَ الـوقت، ثم عادَ القـاضى وَمَعَـهُ الرجلانِ إلى دارِ القَضاء. حكَمَ القاضى بِرَدِّ الحصانِ للرجُلِ، وأمَرَ جُنودَهُ أنْ يَجْلدوا الشحاذ ويحبسوه.

فى المساء ذَهَبَ الرّجُلُ إلى بَيْتِ القاضى وَسألَهُ: «كيفَ عَرَفْتَ الحقيقةَ؟».

فقال القاضـى: «الأمرُ بَسيط، عِنْدَما دَخَلْتُما الإصْطَبْلَ مَـعى هَذا الصباحَ لاحَظْتُ أنَّ الحِصانَ يقـتربُ منكَ ويَشُمُّكَ ويتَمسَّحُ بك، بينَما لم يُبْد أيةَ حَركَـةٍ نحو الرّجُلِ الآخَـر، فَـأدْركْتُ - دُون شَكٍّ - أنَّ الحـصـانَ لَك». ابتَـسَم الرجُلُ وقـالَ للقـاضى: «أتَدْرى مَنْ أنا؟». قالَ القاضى: «لا». فقـالَ الرجلُ: «أنا الملكُ، جئتُ متنكِّرًا لأتأكَّد مِنْ عَدْلكَ. اختَرِ المكافأةَ التى تُحبُّها». قالَ القاضى: «اعذُرْنى أيها الملك؛ فَلَنْ أختارَ شيْئًا، إنَّما أؤدّى واجبى!».

٢٩ - الولد والعنز والجريح

حَدَثَتْ هذه الحكايةُ فى أثناء الحروبِ الصَّليبيَّة فى فلسطين. فَقَدْ هَجَمَ الصليبيّون مِنْ بلادٍ كثيرةٍ فى أوروبّا يحاربون الإسلامَ والمسلمين عَلَى أرْضِ فلسطين. وكانَتْ هُناكَ أسرةٌ فقيرةٌ صغيرةٌ تتكوَّنُ مِنْ أمٍّ وابْنِها الوحيد. قالَتِ الأمُّ لابْنها: «اسْتَوْلَى الجنودُ الصليبيّونَ عَلَى كُلِّ ما عِنْدَنا وأخَذُوه بالقُوَّة، ولَم تَبْقَ لَدَيْنا إلا هذه العَنْزُ.. أرجوكَ - يا بُنَىّ - أنْ تهتَمَّ بها كثيراً، وتَرْعاهَا جيِّداً فَهِىَ كُلُّ ما لَدَيْنا الآنَ!».

أخَذَ الوَلَدُ الصَّغيرُ العَنْزَ إلى مَرْعىً بِهِ أعشابٌ خَضراءُ طَرِيَّة. وتَرَكَ العَنْزَ تأكُلُ، وَجَلَسَ تَحْتَ ظِلِّ شَجَرَةٍ يُراقِبُها ويَقولُ لِنَفْسِه: «إنَّ اللَّبَنَ الذى سَنَحْصُلُ عَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ العَنْزِ هُوَ غذاؤنا الوَحيدُ أنا وأمّى!».

وبَيْنما هُو يُفَكِّرُ إذْ سَمِعَ وَقْعَ حَوافِرِ خَيْلٍ قادمةٍ مِنْ بعيد! أسرَعَ الوَلَدُ الصَّغيرُ نَحْوَ عَنْزِه، وَجَرَّها مِنْ حَبْلٍ فى رَقَبَتِها وأخفاها خَلْفَ بَعْضِ الأشجارِ، وظَلَّ الوَلَدُ فى مَخْبَئِهِ يُراقِبُ القِتال. رأى الوَلَدُ عَدَداً مِنْ جنودِ الصليبيّين يُطارِدُون بَعْضَ الجنودِ المسلمين - فى إحدَى جَولاتِ المعْرَكَة. انتظَرَ الولدُ قَليلاً حَتّى ابتَعَدوا، ثُمَّ سَحَبَ عَنْزَهُ وسارَ إلى بَيْتِه لِيَطْمَئِنَّ عَلَى أمِّه. وَعِنْدَما اقتَرَبَ مِنْ بَيتِه قابَلَ جُنْدِيّاً مُسلِمًا يُساعِدُ جُنْدِيّاً آخَرَ جَرِيحًا. طَلَبَ الجُنديُّ المُسلِمُ مِنَ الوَلَدِ بعضَ الماءِ لِيَسْقِىَ الجريحَ. لم يَجِدِ الولدُ فى بَيْتِه غيرَ كَمِّيَّةٍ قليلةٍ مِنَ الماءِ لا تكفى. فَكَّرَ الوَلَدُ بسُرعة، وأسْرَعَ إلى داخِلِ بَيْتِه، وأحْضَرَ إناءً، وَراحَ يَحْلُبُ العَنْزَ حتَّى امتلأ الإناءُ بالحليب. قَدَّمَ الوَلَدُ الحليبَ للجنديَّيْن. شَرِبَ الجريحُ حَتّى ارتَوَى، وَقَدَّمَ الباقِىَ لزَمِيله. شَكَرَ الجنديّانِ الوَلَد. وقالَ الجَريحُ بِصَوتٍ مُتَقَطِّع: «بارَكَ اللهُ فيكَ يا وَلَدى؛ لَقَدْ أنْقَذْتَ حَياتى!».

انصَرَفَ الرَّجُلانِ، وَدَخَلَ الصَّبِىُّ البَيْتَ، فَقالَتْ لَهُ أمُّه «ماذا فَعَلْتَ يا بُنَىّ؟! لَقَدْ

حَلَبْتَ كُلَّ ما فى ضَرْعِ العَنْزِ مِنْ حَليب، وَقَدَّمْتَهُ للرَّجُلَيْن، ولَمْ تَتْرُكْ لَنا شيئًا نَشْرَبُه».

قالَ الوَلَدُ لأمِّـه: «نَصبِر قَليـلاً حَتَّى يَمتَلِئَ الـضَّرْعُ يا أمِّى، فَمـا كُنْتُ أتَحَمَّلُ أنْ أتْرُكَ جَريحًا يَمُوتُ مِنَ العَطَشِ!».

مَرَّتْ شُهورٌ. وانْتَصَرَ المسلمونَ عَلَى الصَّلِيبيِّين، وَطَردوهُمْ مِنَ البلاد. وبينما كانَ الوَلَدُ يَلْعَبُ أمامَ بَيْتِه حَضَرَ الرَّجُلانِ يَقودانِ أمامَهُما ثَلاثين من الأغْنامِ. قال أحَدُهُما: «هذه الأغنامُ هَدِيَّةٌ لَكَ مِنَ القائد الذى أنْقَذتَ حياتَه». قالَ الوَلَدُ: «ولكنَّنى لَمْ أفعَلْ ما يَسْتَحِقُّ كُلَّ هَذا يـا سَيِّدى». فقالَ الرجلُ وَهُوَ يُشـير إلى مَنْ مَعَه: «بَل فَـعَلْتَ الكَثيرَ، لَقَدْ أنْقَذْتَ حَياةَ قائدنا، وَشاركْتَ دُونَ أنْ تَدْرِىَ فى نَصرِ المُسلمين».

صـافَحَ الرَّجُـلانِ الوَلَدَ بِحَـرارةٍ وانْصَـرَفـا. ووَقَفَ الوَلَـدُ وَمَنْ خَلْفـه أمُّـهُ يَنْظُرانِ بإعْجابٍ إلى قَطيعِ الأغْنامِ.

قالَتِ الأمُّ: «الحمدُ لله، الّذى عَوَّضَنا خَيْرًا عَمّا فَقَدْناهُ!».

فقالَ الابْنُ: «عَمَلُ الخَيْرِ لا يَضيعُ، يا أمِّى!».

٣٠ - الرجال والسفينة

أراد جماعةٌ من التجارِ أن يسافروا بتجارتهم فى النهر، فَجَمَعُوا بعض المالِ واشتركُوا معًا واشتَرَوا سفينةً كبيرة. كانت هذه السفينةُ مِنْ طابِقَيْن: طابِق علوىٍّ، وطابِقٍ سُفلىّ.

وفى يومِ السفرِ حضرَ كلُّ المسافرين، وعملُوا بينَهم قُرْعَةً علَى مكانِ الرّكوب فى السَّفينة. وبعدَ القُرْعَة صَعَدَ بعضُهم إلى الطابقِ العلوىِّ وجَلَسُوا فيه، ونَزَلَ الآخرونَ إلى الطابقِ السفلِىِّ وجَلَسُوا فيه، واستقرَّ المسافرون، كُلٌّ واحدٍ فى مكانه.

تحرَّكتِ السفينةُ، وبَدَأَتْ رحلتَها الطويلةَ فى النهر. سارت السفينةُ فى سلامٍ وأمان، كانَ المسافرون مسرورين، يأكلون ويشربون، ويستمتعون بجمال الطبيعة منْ حَوْلِهم. وكانَ الراكب فى الطابقِ السُّفلىِّ يصعدُ إلى الطابقِ العُلوىِّ، ويُلقى بالدّلوِ فى النهرِ ليملأه، ثُمَّ يَجْذِبُ الحبْلَ فيخرُجُ الدّلوُ مملوءاً بالماء، ويحملُه مرةً أخرَى، ثم ينزلُ إلى مكانِه فى الطابقِ السُّفلى.

وذاتَ مَرَّة، احتاجَ راكبٌ بالطابقِ السُّفْلىِّ إلى بعضِ الماء، فحَمَلَ دَلْوَهُ، وصَعدَ إلى الطابقِ العلوىّ، وملأهُ منَ النَّهْر، وأرادَ النُّزول إلى مكانه، وفى أثناء سيره اصْطَدَمَ برجلٍ نائم، فوقَعَ عليْه، وَسَقطَ الدَّلْوُ منْ يَده، وانسَكَبَ الماءُ علَى الرُّكَّابِ وحاجياتهم.. انزعجَ ركابُ الطابقِ العُلوِىّ، واعتَذَرَ الرجلُ لَهُم، ونزلَ دونَ ماء.

تَضايَقَ ركابُ الطابقِ السُّفلى، واجتمَعوا يفكِّرون فى حَلٍّ لهذه المشكلة. وقفَ أحدُهم وفى يده مطرقةٌ ومسمارٌ كبيرٌ وقال: «ما رأيكم؟ نَثْقُبُ ثُقبًا يَدْخُلُ منه ماءُ النهرِ إلينا، فَنَشْرَبُ ونرتوى، ولا نَصْعَدُ ولا ننزل، ولا نتعَبُ، ولا نضايقُ جيرانَنا فى الطابقِ العلوىّ. وافقَ ركابُ الطابقِ السفلىٍّ علَى هَذه الفكرة، جلَسَ الرجلُ علَى الأرض، وبَدَأَ يطرقُ السفينةَ بالمطرقةِ والمسمارِ ليخرِقَ السَّفينة.. نَظَرَ أحدُ رُكّابِ

الطابقِ العُلْوِىّ، ورَأَى ما يَحْدُثُ، فصاحَ فـى خَوْف، وأبلغَ زُملاءَهُ، وكانَ بَيْنَهُم شيخٌ كبيـر، قال أحدُهم: «دَعْهُمْ وَشأنَهُم، اترُكْـهُم يَفْعَلُوا ما يشاءُون...». وقـالَ آخرُ: «ما دامَ ذلك بَعيداً عنّا، ولَنْ يَصِلَ الماءُ إلَيْنا فَلا يَجبُ أَنْ نَتَدَخَّلَ فى شئُونِهم».

رَفَضَ بقيـةُ رُكَّاب الـطابقِ العلوىِّ هَذا الكَلام، وأسْـرَعُـوا إلى الطابقِ السـفلىّ، وأمامَهُم الشيخُ الكَبير. وَوَصلُوا إلىَ الرجلِ الذى يحـاولُ خَرْقَ السفينة. أَخَذَ أحدُهُم المطرقـةَ منْ يَده. وقـالَ لَهُ الشيخُ الـكبيـرُ فى غَـضَب: «ماذا تَفْـعَل أَيُّهـا الرَّجُل؟ هَلْ فَقَدْتَ عَقْلَك؟!». فصاحَ الرجل: «نَحْن نريدُ راحَتَكُم، لَقَدْ تَعِبْنا منَ الصُّعود والنّزول لنُحضِرَ الماءَ»! فقالَ الشيخُ: لكنَّ ما تفعلُهُ خطأ كَبير، إنكَ بهذا العَمَل تُعَرِّضُنا جميعًا للخطَر...». فأجابَ الرَّجُلُ: «ياشـيْخَنا، إنَّ الجزءَ الذى أخْرِقُهُ مـنَ السفينة ملْكٌ لى، وأنا حُـرٌّ أفـعلُ به مـا أشاء..». فَـرَدَّ الشـيخ قـائلاً: «لا يا بُنَىّ، إنَّ عَـمَلَكَ هَذا يُغْـرِقُ السفينةَ، ونَغْرَقُ كلُّنا مَعَها».

التفتَ الشـيخُ إلىَ الركابِ الذين مَـعَهُ وقـالَ لهم: «وأنتُمْ مُخطِئـون كذلك؛ لأنكم رأيتُمْ هَذا الخَطأ وَسَكَتُّمْ عليه. ولـم تمنَعوا صاحِبَكُم من القيامِ بِه. عاهِدونى أنْ تَقِفوا فى وَجْه الخطأ حَتَّى يرضى اللهُ عنكُم».

خَجلَ الناسُ منْ كلامِ الشيخ، وعاهَدوهُ ألاّ يَسْكُتوا عَلَى أى خطأ بعدَ ذلك. أخيراً قالَ الشيخُ لهم: «هيّـا نُصلِحِ الخطأ، نتعاونْ على سَدِّ الثُّقبِ بِسرُعَـة، قبلَ أنْ تَغْرَقَ بِنا السفينة».

تعاونَ ركـابُ الطابقِ العلوىِّ عَلَى جَلْبِ الماءِ لرُكابِ الطابِقِ السـفلىِّ، وكانَ كلُّ راكِبٍ فى السفينةِ يجدُ حاجتَه منَ الماء.

ثم أكملَتِ السفينةُ رِحلتَها بِسلام، وعادت إلى برِّ الأمان.

٣١ - جائزة ثمينة

اعتـادَ رَجلٌ اسمهُ «طريف» أنْ يـجلسَ فى الشارعِ، يُحَدِّثُ الناسَ، ويَـقُصُّ عليهم الحكايات المسلِّيـة، ويَحكى الفُكاهات المـضحكةَ، وكـانَ كُلُّ مَنْ يَسْـمَعُـهُ أوْ يَراهُ يَضْحَك، وكانَ طريفٌ يعيشُ ممّا يَدْفَعُهُ لَهُ المتفرِّجونَ والمُعجَبون.

وذاتَ يوم جَلَسَ طريف قـريبًـا منْ قـصـر السّلطان، ورآهُ أحَـدُ غلمـان القَـصـر، فأعْجب به، وحَدَّثَ السُّلطانَ عَنْه، فأحبَّ السُّلطانُ أنْ يَرَى هَذا الرَجُلَ الظَّريفَ.

ذَهبَ الغُلامُ إلىَ طَريف، وقالَ لَه: «إنَّ السلطانَ يَرْغبُ فى أنْ يَسْتمِعَ إلى فكاهاتكَ ونَوادرك...». واشتـرَطَ الغُلامُ عَلى طَريف أنْ يُعطيهُ نصفَ الجـائزة التى سَيُقَدِّمُـها لَهُ السلطَان. فَقالَ لَهُ طَريف: «سأذْهَبُ مَعكَ إلَى السلطَان ولكنّى لا أوافقُ عَلَى أن تأخُذَ منى نصفَ الجائزة، فالنِّـصفُ كثيرٌ وأنا رجُل فقيـرٌ مُحتاج، فَخُـذْ سُدسَ الجائزة، أو رُبعَها عَلى الأكثَر.

كـانَ غلام السُّلطان طَمّـاعًا، فَـرَفَضَ أنْ يأخُـذَ منْ طريف أقَلَّ منَ النِّصُف، وطالَ بيْنَهـمـا الخِـلاف والكلامُ، تضـايَقَ طريفٌ مَنْ طَمَـعِ الغُـلام، ثم وَافَق عَلَى طَلَبِـه فى النهاية.

سـارَ الاثنان حتى دَخَـلا قَـصْرَ السُّلطان، ووقفَ طريـفٌ أمامَ السُّلطانِ وانصـرفَ الغُلام. قـال السُّلطانُ: «بَلَغَنى يا طريفُ أنَّكَ تَحكى حكايات عَـجيبـةً ونوادرَ طَريفةً، فَـقُل ما عِنْدك، ولَكَ عِـندى جائزةٌ ثمـينة إذا أضـحكْتَنى، لَكنْ، مـاذا لى عِنْدكَ إذا لَمْ أضْحَكْ؟!».

قالَ طَريفٌ: «إذا لـم تضحَكْ - يا مولاى ـ فاجْلدْنى عَشْرَ جَلدات». قالَ السُّلطانُ: «هيّا يا طَريفُ أسْمِعْنا».

أخَـذَ طريفٌ يحكى النوادرَ والفُكاهات، نادرةً نادرة، وفُكاهـةً بَعْدَ فُكاهة.. حـتى انتـهى مـا كـانَ يعرفُـه منْ حكايـات، وكـان جَـمـيعُ الحـاضـرين من خَـدَم السُّلطان يضحكونَ طَوالَ الوَقت، أمّا السلطانُ فَلَمْ يبتَسم ابتـسامةً واحِدةً لأيةِ نادرةٍ مما سمِع!

أخيـراً قالَ طريفٌ فى أسَف: «يا مولاى السلـطان.. لقد انتهى كُلُّ مـا أعْرف، ويَكادُ رأسى أنْ يَنْفَـجِـرَ منَ الصُّـداع. ولا تَبـقَى عندى إلا نادرةٌ واحـدة، لَقَـدْ توَعَّـدْتَنى أنْ تَجْلدَنى عَشـرَ جَلْدات إنْ لَمْ أستطعْ إضحاكَكَ، وأنا أطْلُبُ منكَ الآنَ أنْ تزيـدَ عليها عَشراً أخرى».

فتعجَّبَ الخليفة منْ طَلَبه هَذا، وكادَ يَضْحَكُ، لكنَّهُ كَتَم الضَّحكَ.

نادَى الخليفةُ الحارسَ، وطَلَبَ منهُ أن يَجْلدَ طَريفًا عشرينَ جَلْدَةً. بَدَأ الحارسُ فى جَلْد طَريف، حـتَّى وَصَلَ إلى عَشْـرِ جَلْدات. عندَئذ صاحَ طَريـفٌ قائلاً: «يا سـيّدى، كلمـةٌ واحدة». فـأمَرَ السُّلطانُ حـارسَهُ أنْ يَتَـوَقَّفَ عَنِ الجَلْد، ثُمَّ التَـفَتَ إلى طريف وَسَألَهُ: «ما كَلمَتُكَ يا طريف؟ ماذا تـريدُ أنْ تَقول؟». أجابَ طريف: «يا سيدى، لَيْسَ فى الدنيا أحْسَنُ منَ الأمانة، ولا أقْبَحُ منَ الخيانة، وقد اتَّفَقَ مَعى الغلامُ الذى أدْخَلَنى عَلَيْك أنْ أعْطيَـهُ نِصفَ الـجائزة، وقَـدْ نلْـتُ الآن نصْفَـهـا، وبَقىَ لِغُـلامكَ نصْـفُـهـا الآخَر!».

ضَحكَ السُّـلطانُ حتى كادَ أن يَـسْتَلْقِيَ عَلَى ظَهـره، ولَمّا فَرَغَ من الـضّحك نادَى غُـلامَهُ، وقـالَ للحارس: «أيُهـا الحارس، اجْـلدْ هذا الغُلامَ عَـشْرَ جَلْدات؟». خـافَ الغـلامُ وقالَ للسُّلطان: «مـاذَا فعلتُ يـا سيِّـدى حتَّى تَجلدَنى عـشرَ جَلَدات؟! مـاذا جَنَيتُ يا مَـوْلاىَ؟!». ابْتَسَمَ السُّلطانُ، ونَظَرَ إلى طَريف، فـقالَ طريفٌ للـغُلام: «هذه جائزَتى التى كـافَأنى بها السُّلطان، وأنتَ شَـريكى كما اتفـقنا، وقد وَصَلَنى نِصفُـها، وبَقى أن تأخُذَ نصفَها بالتمام والكمال!».

بَدأ الحـارسُ فى جَلْد الغُـلام، فاقْـتَـرَبَ منْهُ طَريفٌ، وقـال: «قُلْتُ لَكَ إنى فَـقيـرٌ مُحتاج، ورَجَوْتُكَ أنْ تأخُذَ رُبْعَ الجائزَة فَلَمْ تقبَلْ، هيّا تمتع بالنِّصْف، ولَعلَّكَ تَشْبَع».

ضَحكَ السُّلطانُ، وأخرَجَ كـيسًا منَ النَقود، وقال لِطَـريف: «هَذا الكيسُ لَكَ، فَقَد أضْحَكْتَنى رغْمًا عَنّى!».

أخَذَ طَريفٌ كيسَ النقود، وَشَكَرَ السلطانَ، وانْصَرَف سَعيداً.

٣٢ - الحاكم الذى أسلم

بَعَثَ رسولُ الله ﷺ رجُلاً من أصحابه برسالة إلى (كسْرَى) إمبراطور الفُرْس يَدْعوهُ فيها إلى الإسلام، فلما وَصَلَت الرسالةُ إلى كسرَى مزَّقها، فعادَ الرَّجُلُ إلى الرسولِ ﷺ وأخْبَرَهُ بما فَعَلَهُ كسرَى.

فقال الرسول ﷺ : «مَزَّقَ اللهُ مُلْكَهُ». وكانت اليمنُ تابعةً لبلادِ فارسَ، وكانَ حاكمُها - واسمُهُ باذَان - تابعًا لكسْرى.

بَعَثَ كسْرى إلى باذان يقولُ لَهُ: «إلى جوارك فى بلاد الحجاز رجلٌ يقول إنَّه نَبىٌّ، أرْسلْ إليه رَجُلَيْن من رجالكَ يُحضرانه إليكَ، ثُمَّ ابعَثْهُ إلىَّ، فإنْ رَفَضَ أن يَحْضُرَ فاقْتُلْهُ، وابْعَثْ إلَىَّ برأسِه. بَعَثَ باذان برَجُلَيْنِ من عنْده إلى الرَّسولِ ﷺ فذَهَبَ الرَّجُلانِ يبحثان عن الرسول ﷺ، فقابَلا واحدًا من كُفَّار قُرَيش، وَسَألاهُ عَنْ مكان الرسولِ، وعَرفَ منْهُما الكافرُ سَبَبَ حضُورِهما إلىَ الحجاز، وأخبرهُما أنَّ (محمدًا) ﷺ فى يَثْرِبَ.

وَذَهَبَ الكافرُ إلى قَوْمِهِ يقولُ لهم: «أبْشِروا؛ لَقَدَ آن الأوانُ لتستريحوا من مُحَمَّد فإنَّ كِسْرَى ملكَ الفرس سيخلِّصُكُم منْهُ.

وذَهَبَ الرجلانِ إلى الرسولِ ﷺ فى المدينةِ المنورة، وقابلاهُ، وأخبراه بما قالَه كسرَى، فَطَلَبَ منهما الرسولُ ﷺ أنْ يَحْضُرا إليه فى الغَد.

ولما حَضَرا فى الغَد، كانَ الله سبحانَهُ وتعالَى قَدْ أخبَرَ الرّسولَ ﷺ بأنَّ الله قَدْ سَلَّطَ عَلَى كسرى ابنَهُ فَقَتَلهُ.

فأخبرَ الرسولُ ﷺ الرجُلَيْن بأنَّ كِسْرَى قَدْ قُتِلَ، وأنَّ الذى قَتَلهُ هو ابنُه.

فَذُهِلَ الرَّجُـلان ودُهِشَا أشَـدَّ الدَّهشة، وقـالا للرسول ﷺ: «هذا كلامٌ خـطيرٌ، هَلْ تَتَحَمَّلُ نتائجَهُ إنْ قُلْناهُ لِحاكِمِ اليَمَن باذان؟».

قَال لهم الرسولُ ﷺ: «نعم، أخْبِراهُ بِذَلكَ». وَطَلَبَ منهـمَا أيْضًا أنْ يُخْبِراهُ أنَّ دينَ الإسلام سَيَنْتَشِر فوقَ أرضِ كسرَى، وأنَّ باذان إذا أسْلَم فإنَّ الرسـولَ سيبقيه حـاكِمًا عَلَى بلاد اليمن.

فَذَهبَ الرجـلان إلى باذانَ، وأخبراه بمـا قالَهُ الرسولُ ﷺ، فـقال باذان: «والله إنى لأشْعُـرُ أنَّ هَذا كـلامُ نَبِيٍّ، وَإنْ كانَ صـادِقًا فـستـأتينا الأخبـارُ مِنْ فارس فَنَعْـرِفُ أنَّهُ صادقٌ، وأنّه رسولُ الله حَقا، أمّا إذا كانَ كاذبًا فَلَهُ معنا شَأنٌ آخَرُ».

وجاءت الأخـبارُ مِن بِلاد فارس إلى باذان فى اليـمن، وَعَرَفَ منْها أنَّ كُلَّ مـا قالَهُ الرسولُ ﷺ حَقٌّ، فأعْلَنَ باذانُ إسلامَهُ، وأسْلَمَ قَوْمـهُ مَعَهُ، وتَحَقَّقَتْ دعوةُ الرسول ﷺ فى سنواتٍ قليلةٍ معدودة.

تَمزَّقَتْ دولة كسرَى، وَهَزَمَ المُسْلمونَ جُيوشَهُ، وانتشر الإسلام فى بلادِهِ كُلِّها.

٣٣ - القاضى والأيتام

كانَ القـاضى مُنْذرُ بنُ سَعيد وَصيّا عَلَى بَعضِ الأطفال الأيـتامِ. وذاتَ يوم ذَهَبَ ليَعْرفَ أحْـوالَهُم، فَـوَجَدَهُمْ يبْكُونَ. فَـسألَـهُمْ عَنْ سَبَب بُكائهـم، فقـالَتْ لَهُ كُبْـرى البَناتِ: «سَـمِعْنا مِنْ جـارَتِنا التى يَعْمَل زَوْجُـها فى القَـصْرِ أنَّ الخليـفة سَـيأخُذُ بَيْـتَنا لنَفْسه».

طَمْـأنَ القاضى الأطفـالَ، وَقالَ لَهُم: «إنَّ الخـليفَـة عَبـدَ الرَّحْمَنِ الناصـرَ ذُو خُلُقٍ وَدينٍ، وَلَنْ يَقْبَلَ أبداً أنْ يَستَولِىَ عَلَى مالِ اليتـامَى ظُلْمًا. سَأذْهَبُ إلى قَصْـرِ الخلافَةَ لأعْرِفَ الأمْرَ بَنفسى مِنَ الخليفـةِ، فَأنا الوَصِىُّ عَليكم، وَمِنْ واجبى أنْ أرْعَى أمْوالكُم وأحافظَ عَلَيها».

ذَهَبَ القاضى إلى قَصْـرِ الخَليفَةَ، فأحسنَ الخليفـةُ استقبالَه؛ فهـو يَعرفُ أنهُ قاضٍ عالمٌ، وإمامُ الجـامع الكَبيرِ. قالَ القاضى: «يا مَولاى الخَليـفة، أنْتَ تَعْرفُ أنّى وَصىٌّ علَى أطفالٍ أيْتـامٍ لَهُم بَيْتٌ صَغيرٌ يَـعيشُونَ فـيه، وَحمّامٌ يُرزَقُـونَ منْهُ، وَقَدْ بَلَغَنى أنَّكَ تُريدُ أن تأخذَ البَيْتَ والحمّامَ؟».

قالَ الـخليفَـةُ : «ما بَلَغَكَ غَـيْرُ صَـحيح، يا شَـيخُ مُنذر؛ فأنا أخـافُ اللهَ وأخـشاهُ، فَكَيْفَ أجْرُؤُ عَلَى أخذِ مالِ اليتـامَى؟! الحقيقَةُ أنَّنى سَأبْنى مكْتَبَةً كَـبيرةً قَريبًا مِنْ بَيْت هؤلاء اليَتـامَى، واقْتَرَحَ كَـبيـرُ المُهَنْدسين أخْـذَ البَيْت والحَـمّامِ وَهَدْمَهـما، ولـم أكُنْ أعْرِفُ أنّـكَ - يا شَيْـخَنا - وَصِىٌّ عَلَى هؤلاء الأيْتامِ، وكُنتُ أنْوى أنْ أشْـتَرِىَ البَـيْتَ والحَمّامَ مِنْ أصْحابِه».

فَقَـالَ القاضى: «وَأنا - يا مَوْلاىَ الخَليـفة - لاَ أقْبَلُ البَـيْعَ، ولا أوافِقُ عَلَيه إلاّ فى

حالَة منْ هَذه الحالات الثلاث: أنْ يكونَ الأيتامُ فى حاجَـة إلى بَيْعها، وَهُمْ لَيسُوا فى حاجَـة إلىَ البَيْع، أو أنْ يَكُونَ البناءُ قَديمًـا مُهَدَّدًا بالسُّقـوط. وَهُوَ لَيْس كَذَلك، أوْ أن يَكُونَ الثَّمَنُ المَعْروضُ مُناسبًا لصالحِ الأيتام. وأعتقد أن هذا فى يَدِ مَولاىَ الخَليفة».

ضَحكَ الخَليفَةُ وَقالَ: «ما أشَدَّ حرصَكَ يا شَيْخنا!». فقالَ القاضى: «لَوْ كانَ المالُ مالى مـا حَرَصْتُ عَلَيْه فى سَـبيلِ أنْ أحَقِّقَ رَغْـبَةَ مَوْلاىَ الـخَليفة، ولَكنَّهُ مـالُ أطفال أيتامٍ، وَأنا الأمينُ علَيهم والمسئولُ عنهُ أمامَ الله - عَزَّ وَجَلَّ - يومَ القيامَة».

أرسَلَ الخَليفـةُ بَعْضَ رجاله لتَـقْدير الثَّمَنِ وَعَـرْضه عَلَى القاضـى. ولكنَّ القَاضى وَجَدَ الثَّمَنَ الذى قَدَّرَهُ الخُبراءُ قَليلاً وفيه ظُلْمٌ للأطفال اليتامَى فَرَفَضَهُ. خافَ القاضى أنْ يَأخُذَ الخَليفةُ البَيْتَ والحمَّامَ بالقُوَّة، فَقامَ بِهَدْمِ البَيْتِ والحمامِ وباعَ الأنقاضَ بِثَمنٍ كَبير، وذكَرَ ذَلكَ للخليفة، وَطلبَ منه أنْ يَشْتَرى الأرضَ الفضاءَ إنْ أرادَ.

تَعجَّبَ الخَليفَةُ مِنْ تَصرُّفِ القاضِى وقالَ لَهُ:

«إنْ كُنْتَ - يا شَيْخَنا - بهـذا الحرصِ الشَّديد عَلَى أموال اليتامَى فـاذكُرْ لى الثَمنَ الذى تُريدُهُ فى الأرْضِ الفَضـاء، وَسأوافقُ فى الحَال عَلَيْه دونَ الرُّجـوعِ إلى أعوانى؛ وَذَلكَ حَـتَّى لا أكونَ - وأنا خَليـفَةُ الـمُسلمـين - أقَلَّ مِنْكَ حـرْصًا عَلَى مـالِ اليَتـيمِ وَمَصْلَحَته!».

٣٤ - نصر من الله

جمعت قريشٌ جيشَها الكبيرَ، وسارَ الجيشُ لقتال المسلمين. وسار المسلمون بجيشهم الصغير. واتجه الجَيْشان إلى (بدر)، وهو مكانٌ مشهورٌ فيه بئرُ ماء.

وكان جَيْشُ المشركينَ أكْبَرَ مِنْ جَيشِ المُسلمين أكثرَ من ثلاثِ مرات، ولما اقترب الجيشان من المكانِ أنزلَ اللهُ من السماء مَطَراً، كان على الكُفارِ شديداً بحيْثُ منعَهم من السَّيْرِ والحركَة، وكان عَلَى المسلمين خيراً وبركةً، حيثُ تماسكت الأرضُ تحتَ أقدامهم وصلُبت، وسَهُلَ لَهُمُ السَّيْر.

فتحرَّك المسلمون، وسبقوا الكفارَ إلى ماء بدر، فأقاموا عندَه، وبَنَوا حَوْلَ الماءِ حَوْضًا ليُساعِدَ المسلمين فى الانتفاع بالماء، ويَحْرِمَ المشرِكين منه.

ونَظَّمَ المسلمون صفوفَهُم، وعندما جاءت اللحظاتُ الحاسمةُ فى صباح يوم الجمعةِ السابعَ عَشَرَ من رمضانَ التقَى الجيشان، وهجم المسلمون وهم يصيحون بصوتٍ كالرَّعْد: «اللهُ أكبرُ، الله أكبر».

ورَفَعَ الرسولُ ﷺ يديْه إلى السماء يدعو اللهَ أن يُحَقِّقَ للمسلمين النصرَ الذى وَعَدَهُمْ به، واشتدت الحَرْبُ، وَعَلِمَ اللهُ إيمانَ المسلمين وصَبْرَهُم وإخلاصَهُم، فاستجابَ لَهُم، وأرسلَ ملائكةً من السماء تساعِدُهُم، وتحاربُ معهم ضدَّ الكُفّار، ملائكةً على دُفعَات، فى أفْواجٍ متتابعَةٍ، تُقَوِّى المسلمين وتُثَبِّتُهم وتَضْرِبُ الكفارَ فوْقَ الأعناقِ، وفَوْقَ الأيدى.

يقول واحدٌ من المسلمين الذين اشتركوا فى غَزْوَةِ بَدْرٍ الكُبْرَى وَهُوَ يَصِفُ ما كانَتْ تَفعَلُهُ الملائكةُ: «لَقَدْ رَأَيْتنا يَوْمَ بَدْرٍ، وإنَّ أحَدَنا يُشيرُ إلى الكافرِ فَيَقَعُ رأسُهُ عَنْ

جَسَدِهِ قَبْلَ أنْ يَصِلَ إليه السيفُ..». وكان الله - سبحانه وتعالى - يستطيعُ نَصْرَ المسلمين مِنْ غَيْرِ ملائكة، ولكنه أرْسَلَ إليهم آلاف الملائكة بُشْرَى لَهُم، ولَتَطْمَئِنَّ قُلوبُهم، فى أوّلِ معركةٍ كُبْرَى بَيْنَ جَيْشِ المشركين الضخم من ناحية، وبَيْنَ دُعاةِ الإسلام بأعدادِهم القليلة، وأسلحَتِهم المحدودة مِن ناحيةٍ أخرى، ليكونَ ذلك دَليلاً واضحًا وبُرهانًا صادقًا عَلَى أنّ اللهَ لا يَتَخَلَّى عَنْ عبادِهِ المؤمنين ولا ينساهُم.

وفى هذا يقول اللهُ سبحانَهُ وتعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران ١٢٣].

وانتَصَرَ المسلمون انتصارًا هائلاً هزَّ بلادَ العَرب، وَقُتِلَ فى هَذِهِ المعركةِ الكُبْرَى: أبو جهل وعَدَدٌ كبيرٌ مِنْ زُعَماءِ الكُفار، وكان عَدَدُ القَتْلى من المشركينَ سَبْعين قتيلاً، وعَدَدُ الأسْرَى مِنْهم سَبْعين أسيرًا، واستشهدَ من المسلمين ستَّة من المهاجِرين، وثمانيةٌ مِنَ الأنصَار.

وكانت غَزوةُ بدرٍ الكُبْرَى نَصْرًا عظيمًا فى تاريخ الإسلام، فارتفعتْ رايات المسلمين عاليةً فى المدينة، ونُكِّسَتْ راياتُ كُفار قريش، وأصبَحَ واضحًا أنَّ المستَقْبَلَ لهذا الدين الجديد، دينِ الحَقِّ، وأنَّ اللهَ سَيُتِمُّ نُورَهُ ولَوْ كَرِهَ الكافرون.

٣٥ - جزاء سنمار

فى قَديمِ الزَّمـانِ أرادَ ملكٌ اسمُـهُ النُعمانُ أن يَبنى قـصراً عظيمًـا، يباهى بِهِ جـميع الملوكِ فى ذلك الوقـت، ويُفاخِـرهُم. سـألَ النعـمـانُ عَن المـهندسيـنَ والبنّائينَ فى مملكَتِه، فعلمَ أنَّ أمهرَ البنّائين جَميعًا مُهندسٌ اسمهُ سِنمَّار.

أرسلَ النعـمانُ فى طلب سنمـار فَحَـضَرَ لـمقـابلته. وقـالَ النُّعمـانُ: «أرْسلْتُ فى طَلَبِكَ لِتَـبْنِيَ لِي قَصـراً لَم يرَ الناسُ لهُ مَـثيـلاً فى مَمـلكَتى، وسوفَ أكـافئكُ مكافـأةً عظيمةً».

قالَ سنمّارُ: «يُشرِّفُنى أنْ يَطْلُبَ منّى المَلكُ بناءَ قَصْرِه، سَوْفَ أبنْى لَكَ - يا مَوْلاى - قَصْرًا ما رأى النـاسُ مِثْلَهُ مِنْ قَبْلُ، لَكِنَّ ذَلِكَ سَيُكلِّفُكَ الكَثيـرَ، وسَوْف أحْتاجُ إلى ألف مِنَ البنّائين المَهَرَة».

قالَ النُّعْمانُ: «اطْلُبْ ما تَشاءُ، وَسَتجدهُ بيْنَ يَدَيْكَ فى لَحظاتٍ، المُهِمُّ أنْ تَنْتَهِىَ مِن بِناء القصر فى أقصَرِ وَقتٍ مُمْكِنٍ».

مَكَثَ سنمـار لَيالىَ وَأيّامًا يُعِـدُّ رُسُـــومَ القَصْـرِ ومَعَهُ المـساعـــدون، ثُمَّ اخـتار مَوْقِــعًا مُمْتازًا عَلَى أحَدِ الأنْهارِ، وبَدأ فى البِناءِ، واستَمرَّ يَعْمَلُ لَيْلَ نَهارَ عِدَّةَ سَنَواتٍ بِلا رَاحَةٍ.

انتَهَى البَنّاءونَ مِنَ الـبِناء، وَذَهَبَ سِنمَّارُ إلى النُعمـانِ وَقالَ: «قَصْـرُكَ جاهِزٌ الآنَ، ينتَظِرُ قُدومَكَ يا مولاى». فَـرِح الملك النُّعمانُ بالخَبَر، وكـانَ مُشْتاقًا ومُـتَلَهِّفًا لرؤيةِ القَصْـرِ. ولَما حَـضَرَ أعْـجبَ ببنائِهِ كثيراً، وَشَكَرَ سِنـمَّارَ عَلَى جُـهدِهِ وبَراعَتِـهِ وفَنِّه، وقَالَ:

«ما كُنتُ أتخَيَّلُ أبدًا - يا سنمّارُ - أنّ القصرَ سيكونُ بهذه العظَمَة والفخامَة! إنّكَ تستَحقُّ جائزَةً كبيرةَ..». وبَعدَ أيّام انتَقلَ المَلكُ ليَسكُنَ فى قَصْره الجَديد، وأرسَلَ فى طَلَب سنمّار. حَضرَ سنمّارُ وقابَلَ الملكَ النعمانَ. طَلَبَ النعمانُ منْ سنمّارَ أنْ يَتجوَّلَ مَعَهُ فى جَوانب القصرِ. وأنْ يُعَرِّفَهُ بغُرَفه وقَاعاته.

طافَ النُّعمانُ وَسنمَّار بجَميع جوانب القصر، ثُمّ صَعدا إلى سَطحه. كانَ السَّطح عاليًا، وكانَ مَنْظَر المدينة منْ بعيد جميلاً. سألَ النُّعمانُ سنمارَ: «هَلْ هُناكَ قَصرٌ مثل هَذا؟». فأجابَهُ سنمارُ: «لا يا مَولاى». ثُمَ سَألَهُ النُّعمانُ: «وهَلْ هُناكَ بَنّاءٌ غَيرُكَ يَستَطيعُ أنْ يَبْنى مثْلَ هَذا القَصْر؟». أجابَ سنمّارُ: «لا يا مولاى».

فَكَّرَ النُّعمانُ سَريعاً، وقَالَ فى نَفْسه: «إذا عَاشَ هَذَا البَنّاءُ فَسيَبْنى قُصورًا أخْرَى أجْمَلَ منْ هَذا القَصْر.. لَيْسَ هُناكَ غَيْرُ حَلٍّ واحد.. نَعَم.. حَلّ واحد!».

أشارَ النُّعْمانُ إلى بَعْض جُنوده، وهَمَس لَهُمْ بأمْر. وَعَلَى الفَوْر، أمْسَكَ الجُنود بسنمّارَ، وألقوهُ منْ فَوْق سَطح القَصْر! سَقطَ سنمارُ منْ هَذا الارتفاع الكَبير عَلَى الأرْض ، ومَات فى الحَال.

وكانَتْ هَذه هىَ المُكافَأَةَ الّتى نالَها سنمّار عَلَى عَمَله العَظيم!

وَمُنْذُ ذَلكَ الوَقْت، ونَحْنُ نَقولُ هَذا المَثَلَ: «جَزاءُ سنمّار» لكُلِّ مَنْ يُقَدّمُ خَيْراً للناس فَيَجْزُونَهُ شرا.

٣٦ - الشهداء الثلاثة

هشامٌ وطارقٌ وحُسامٌ ثلاثةُ أصدقاء، عاشُوا طُفولَتَهُمْ معًا، وتعلّموا الفروسيَّة وركُوبَ الخَيْل مُنذُ صِغَرِهم. كَبرَ الثلاثَةُ وصارُوا فُرْسانَ القبيلة يُدافعونَ عنها، ويُحاربونَ أعداءها.

وعندما بدأ الجهادُ خرَجتْ جُيوشُ المُسلمينَ تُحاربُ أعداء الدّين، لتَفْتَحَ البلادَ، وتُنقذَ أهلَها مِنْ ظُلْم الفُرسِ والرُّوم. انْضَمَّ الأصْدقاءَ الثلاثَةُ إلى صُفُوف المُجاهدين، واشْتَركُوا فى مَعارِكَ كَثيرةٍ... كانوا يُحاربونَ فيها جَنْبًا إلىَ جَنْبٍ، ويَهْزِمُون العَدُوَّ.

وفى أحَدِ أيّام الصَّيْفِ الحارَّةِ دارَتِ المَعْرَكَةُ فى صَحْراءَ واسعَة، لَيْسَ فيها زَرْعٌ ولا ماء. واستَمَرّ القتالُ وَقْتًا طويلاً، واشْتَدَّت المعركَةُ، وَسَقَطَ الأصْدقاء الثَّلاثَةُ جَرْحَى، واحدًا بَعْدَ الآخَرِ.

وبَدأ المسلمونَ هُجومًا قَويّا علَى الأعداء، وأخَذَ الأعداءُ يَفرُّونَ أمامَهُمْ، وَراحَ الجُنودُ المُسلمون يُطارِدُونَهُم... وأخذَتِ المعْرَكَةُ تَبْتَعدُ قَليلاً عَنِ المكان.

وَجَدَ الجَرحْى الثَّلاثَةُ أنْفُسَهُمْ مُلقَيْنَ عَلَى رمالِ الصَّحراء الحارَّةِ بلا ماء، وَجِراحُهُم تَنزفُ، وأجْسامُهُمْ تَضْعُفُ، وَعَطَشُهُمْ يزَيدُ، وكانَ كُلٌّ مِنْهُمْ يَسْمَعُ أنينَ صاحِبِه، فَيَتَألَّمُ لألَمِه!

كانَ هِشامٌ يَصيحُ : «ماء! أعطونى بَعْضَ الماءِ». وكانَ حُسامٌ يَهْمِسُ بِصَوتٍ ضَعيفٍ مُرْتَعِشٍ: «أنا عَطشانُ.. أريدُ أنْ أشْرَبَ».

سَمِعَ طارِقٌ أنينَ صاحبَيْه، فَزَحَفَ عِدَّةَ خُطُوات وَدَمُهُ يَسيلُ عَلَى الرِّمال المُلْتَهبة، لَعَلَّهُ يَجِدُ الماءَ، أصابَ طارِقًا التَّعَبُ الشَّديدُ، فَتَوَقَّفَ عَنِ الحَرَكَةِ، وَأسْلَمَ أمْرَهُ إلى الله.

وَفى تلكَ اللَّحظَة أقْبلَ فارِسٌ مُسْلِمٌ، وَشاهَدَ الجَرْحَى الثلاثةَ ما يَزالُونَ أحْياءَ، فَنَزَلَ مِنْ فَوْق ظَهْرِ حِصانِه، وبَحَثَ فَلَمْ يَجِدْ مَعَهُ غَيْرَ قَليلٍ مِنَ الماءِ لا يَكْفى إلاَّ جَرِيحًا واحِدًا.

اقْتَرَبَ الفارِسُ مِنْ طارِقٍ وقالَ: «اشرَبْ، إنَّها شَربَةُ ماء، لَيْسَ مَعى غَيْرُها». أشارَ طارِقٌ إلىَ صاحِبَيْه وَقالَ: «هُما أحْوَجُ مِنّى إلى الماء».

ذهبَ الفارسُ إلى هِشامٍ، وقدَّم إليه الماءَ ليشربَ، فأشارَ إلى حُسامٍ، وقال: «ابْدَأْ به؛ فهو أشدُّ حاجةً إلى الماء منِّى».

أسْرَعَ الفارِسُ إلَى حُسامٍ ، فَأشارَ حُسامٌ إلى طارِقٍ، وقالَ بِصَوْتِهِ الضَّعيف: «أعطِهِ الماءَ فَهُوَ أكْثَرُ عَطشًا منّى».

تَحَيَّرَ الفارِسُ أمامَ هَؤلاء الجَرْحَى الثلاثة، إذْ يُفَضِّل كُلٌّ مِنْهُمْ زَميلَيْه عَلى نَفْسه ، فَذَهبَ إلىَ طارِقٍ مَرَّةً أخْرَى، لَكِنَّهُ فُوجِئَ بأنَّهُ قَدْ ماتَ!

فَلَمّا ذَهَبَ الفارِسُ إلى هِشامٍ لِيُقَدّمَ الماءَ وَجَدَهُ قَدْ فارَقَ الحَياةَ!

تَركَهُ الفارِسُ وَأسْرَعَ إلىَ صَدِيقهِما حُسامٍ، ورَفَعَهُ عَن الأرضِ، وأسْنَدَهُ مِنْ ظَهْرِهِ لِيَشْرَبَ، لَكِنَّهُ - هَو أيْضًا - كانَ قَدْ لَحِقَ بِصاحِبَيْه!

وهكذا فضَّلَ كلٌّ واحد من الأصدقاء الثلاثةَ صاحبَه على نفسِه، فى أصْعَبِ الأوقاتِ وأصدقِها، حَتّى لقُوا الله شُهَداءَ.

٣٧ - الراعى الأسود وأمانته

خَرَجَ المسلمون مَعَ الرسول ﷺ إلى خيبَر لحرب الكفار، وانتصرَ المسلمون، وبدأتْ حُصونُ خَيْبَرَ تتساقَطُ فى أيدى المسلمينَ واحداً بَعْدَ الآخَر. وكان منْ أهلِ خيبَر رَجُلٌ أسودُ يَعْمَل راعيًا عندَ أحَد الكُفّارِ. فَلَمّا خَرَجَ يرعَى الغَنَمَ أخَذَها وسارَ بها نَحوَ جَيْشِ المسلمين لِيَرى النبىَّ الّذى سَمع أهل خيبر يتحدّثون عنْه.

وَصلَ الراعى الأسودُ ومَعَهُ غنمُه إلى رسول الله ﷺ وسألهُ عن الدّينِ الجديدِ الذى يدعو إليه. فَحَدّثَهُ الرسولُ ﷺ عنِ الإسلامِ ، فأضاءَ اللهُ قَلْبَ الراعى بنور الإيمانِ وقالَ: «وماذا يكونُ لى إذا شَهِدْتُ - كَما تقولُ - أن لا إلَهَ إلاّ الله .. وأنَّكَ رَسولُ الله، وآمنتُ بالله، ولم أعْبُدْ سواهُ؟».

قالَ الرسولُ ﷺ : «تكونُ لكَ الجَنَّةُ إن متَّ عَلَى هَذا». فَأسْلَمَ الراعى الأسودُ وقالَ: «ولكنَّ عندى أمانَةً، هَذه الغَنَمُ التى أرْعاها، كَيفُ أرُدُّها إلى صاحبها؟».

قالَ الرسولُ ﷺ: «إنَّ اللهَ سَيُؤَدِّى عنك أمانَتَكَ». وطَلَبَ منْهُ أنْ يَخرُج بالغَنَم منْ معسكَر المسلمين ويَرْميها بِحفْنَة منَ الحَصى، وسترجعُ وَحْدَها إلىَ صاحبها. فَنَفَّذ الراعى الأسْوَد كلامَ الرسولِ ﷺ ورَمَى الغَنَمَ بالحَصَى، وقالَ لها: «ارجعى إلى صاحِبك، فوالله لا أصْحَبُك أبداً». فَخَرجت الغَنَمُ مُجْتَمعَةً، كأنَّ سائقًا يَسوقُها. وسارَتْ حَتَّى دَخَلَتْ حديقَةَ صاحِبها. فلمّا رآها صاحِبُها، فَهِمَ أنَّ الراعِى قَدْ أسلَمَ وَلَحِقَ بالرّسولِ ﷺ.

أمّا الرّاعِى الأسْوَدُ ، بَعدَ أنْ أضاءَ اللهُ قلْبَهُ بِنُورِ الإيمانِ فإنَّهُ حَمَلَ السِّلاحَ، وقاتَلَ فى سَبيلِ اللهِ فَقُتِلَ، وَصارَ مِنَ الشُّهَداءِ.

٣٨ - عبد الكريم والتمر

أقامَ أحـدُ أغنياءِ الفَـلاّحينَ وليـمةً بِمُناسَـبَةِ زواجِ ابنتـه، ودَعا جـيرانَه وأصـدقاءَهُ لحضـور الوليـمـة. وكـان عـبدُ الـكريمِ الفـلاحُ الطَّيبُ منْ بيْنِ المـدعُـوِّين. خـرجَ عبـدُالكريم مِنْ منْزِلِه قَبْلَ غروبِ الـشمس؛ لأنَّ الطريقَ إلى القريةِ التى فـيها الوليـمةُ طَويل.

وفى أثناءِ سيرِه رأى عـبدُ الكريم علَى جانبِ الطريقِ سَلةً بها بـعضُ التمرِ الحُلو. تخيَّلَ عبدُ الكريمِ الطعـامَ اللذيذَ الكثيرَ الذى سيتناوَلُهُ فى الوَليمـة، فاقترَبَ مِنَ السَّلة ورَكَلها بِقَدمِه، فانقلبَتْ وتبَعثَرَ التـمرُ فى التراب. ضَحكَ عبدُ الكريم وقالَ لنفسه: لا حاجَةَ بى اليومَ إلى هذا التَّمـر، سَوْفَ أتناولُ فى الوليمة طَعامًا شَهِيا كثـيرًا، أمّا التمرُ، فسأتْرُكُهُ لتَأكُلَه الماشيةُ والطّيور.

واصَلَ عـبـدُ الكريمِ طريقَـه إلى حَـفْلِ الزواج. وكـانت هناكَ قناةٌ صـغـيـرةٌ تَقْطَعُ الطريق، ولا بُدَّ لعبْـدِ الكريمِ أنْ يَعبرَها إلىَ الجـانبِ الآخرِ ليَصلَ إلىَ مكانِ الوليـمة. ولمْ يَكُنْ هناكَ جِـسْرٌ قريبٌ يَعْـبُرُ علَيْـه عبدُ الكريـم، اعتادَ عـبدُ الكريمِ أنْ يَقْـفِزَ مِنْ جانبِ القناةِ إلى الجانبِ الآخَـر؛ لأنَّ الماء فيها لَمْ يَكُنْ عَمـيقًا، ولأنَّ عَرْضَ القناة لا يَزيدُ على مِترٍ واحِد.

فوجِئَ عبدُ الكريم - فى ذلكَ المساء - أنَّ المـاءَ قَدْ ارتَفَعَ فى القناة ارتفاعًا كَبيرًا واتسعَ سَطْحُهُ حـتَّى زادَ عَلَى ثلاثة أمتار. وأخَذَ عـبدُ الكريمِ يَسيـرُ عَلَى شاطئِ القناة مَرَّةً إلى اليَمين، ومَـرَّةً إلى اليَسار، يَبْحَثُ عَنْ مَوْضعٍ ضَيِّقٍ مِنَ القناة يَـستطيعُ أنْ يَقْفِزَ منْهُ إلى الجانب الآخَر، لكنَّهُ لم يجـدْ. واصَلَ عَبْدُ الكَريم السَّيْرَ عَلَى الشـاطئِ مَسافةً طويلة، وكانَ ارتفـاعُ الماء يزدادُ فى القَناةِ شَـيْئًا فَـشَيْئًـا، وسَطحُهُ يزدادُ اتساعًـا، بيْنَما أخَذَتِ الشمسُ تميلُ إلَى الغُروب.

بَدَأ الطَّريقُ يُظْلِمُ، وَتَذكَّر عَبْدُ الكَريمِ أنَّ هَذا اليوْمَ هُو بدايـةُ الفترةِ التى تأخُذُ قَرْيَته خلالَها نَصيبَها منَ الماءِ لِرَى الزَّرْعِ، فَـتَمْتَلِئُ القناةُ بالماء بسبب فَتْحِ السَّدِّ الذى يأتى بالماءِ منَ النَّهْر، وعندمَا يزدادُ ارتفاعُ الماءِ فى القناةِ يَتَّسِعُ سَطْحُهـا ولا يَسْتَطيعُ أحد عُبورَها.

وقفَ عـبـدُ الكريمِ حـائرًا حَزيـنًا ينظرُ إلى مَـلابِسـه الجديدة الـغاليـةِ وقـد أحَسَّ بالتّعب. تصـوَّرَ عبدُ الكريمِ كيفَ سيكونُ شَكلُهُ إنْ هو قَفَزَ ووقَعَ فى المـاء. وأخيراً قـال: «لَنْ أتَمكنَ مِنْ عُـبورِ هذه القَناة، ولنْ أسـتطيعَ الذّهاب إلى الـولَيمـة». وهكذا استدار عبدُ الكريم عائداً إلى بيْته.

كانَ الوقتُ قَدْ تأخَّـر، سارَ عبدُ الكريمِ والقمرُ يُـضىءُ لَهُ الطَّريقَ، بَدَأ عبدُ الكريمِ يَشْعُرُ بالجـوعِ الشديد، وكُلّما سارَ اشـتَدَّ إحساسُـه بالجوع. قالَ عبدُ الكريـمِ لنفسه: «يَحْسُنُ بى أنْ أجْلسَ قليلاً، لكنَّ الجلوسَ مَعْناهُ جُوعٌ أكثَرُ! وفى الوقتِ نفسه صِرتُ غيْرَ قَادرٍ عَلَى السَّيْر».

كـانَ عبـدُ الكريم يشعُـرُ بالجوعِ والتَّـعَب، وتذكَّـرَ فَجـأةً التَّمْـرَ الذى ألقَى به فى التُّراب. «أين هُوَ يا تُرى؟!». أخَذَ عـبدُ الكريم يَبْحَثُ فى ضَوْءِ القَمَـر لَعلَّهُ يَعْثُرُ عَلَى ذَلكَ التـمرِ الذى رَكَلَهُ بقَـدَمه، بَعـدَ قَليلٍ شاهَدَ عَـبْدُ الكريم السَّلَّـة، وأخَذَ يتحَـسَّسُ الأرضَ حَوْلَ السّلَـةِ فى لَهفة شـديدة، ويتناوَلُ حَبـات التَّمـر، ويَمْسَحُ عَنْهـا التراب، ويَأكُلُهـا. وكَمْ كانَ عَـبـدُ الكَريـم سَعـيـداً وهوَ يَمْضُغُ ذَلَكَ الـتَّمْـرَ الذى رَمَى بِهِ إلى الأرضِ منذ ساعات!

وعادَ عبـدُ الكريم إلىَ مَنْزلِه وهوَ يقولُ لنفسه: «لا تَرمِ شَـيئًا لَهُ فائدة - مَهْـما كانَ بَسيطًا - فقد يُسعدُكَ أنْ تَجدَه عِندَما تحتاجُ إليْه، والّذى لا يَنْفَعُك اليومَ قَدْ تَحتاجُ إليه غَدًا!».

٣٩ - كل درهم بعشرة

فى عهد الخليفةِ أبى بكرٍ الصديق - رضى الله عنه - أصابَ الناسَ جفافٌ وجوعٌ شديدان، فلما ضاقَ بهم الأمر ذَهَبوا إلى الخليفة أبى بكرٍ - رضى الله عنه - وقالوا: «يا خليفـةَ رسـولِ الله، إنَّ السـماءَ لم تُـمْطِرْ، والأرضَ لم تُنْبِتْ، وقـد أدركَ الناسَ الهلاكُ فماذا نَفْعلُ؟».

قالَ أبو بكر - رضى الله عنه - «انصرفوا ، واصبِروا ، فإنى أرجو ألاَّ يأتِى المساءُ حَتَّى يُفَرِّجَ اللهُ عنكُم».

وفى آخرِ النهارِ جاءَ الخَبَرُ بأنَّ قافلةَ جمالٍ لعثمانَ بن عفان - رضى الله عنه - قد أتت من الشامِ إلى المدينة. فَلمّا وَصَلَتْ خَرجَ الناسُ يستقبلونها، فإذا هى ألفُ جملٍ مُحمَّلَة سمْنا وزيْتا ودقيـقًا، وتوقَّـفتْ عِنْدَ باب عثـمانَ رضى الله عنه. فلمّـا أنْزَلَت أحـمالَهـا فى داره جاءَهُ التـجـار. قالَ لهم عـثمـان رضى الله عنه: «مـاذا تُريدون؟». أجابَ التجار: «إنَّكَ تَعْلَمُ ما نُريد، بِعْنـا مِنْ هذا الذى وَصَل إليك فإنَّكَ تَعْرِفُ حاجةَ الناسِ إليه».

قالَ عثمانُ : «كم أرْبَحُ عَلَى الثمن الّذى اشتريْتُ به؟».

قالوا: «الدِّرْهَمَ دِرْهَمَيْن».

قال: «أعطانى غيرُكم زيادةً عَلَى هذا».

قالوا: «أربعة!».

قال عثمان رضى الله عنه : «أعطانى غَيْرُكم أكثرَ».

قال التجارُ: «نُربِحُكَ خَمْسَةً».

قال عثمانُ : «أعطانى غيرُكُم أكثر».

فقالوا: «لَيْسَ فى المدينةِ تجارٌ غيرُنا، ولم يَسْبِقْنا أحدٌ إليْك، فَمَنِ الذى أعطاكَ أكثَر مما أعْطَيْنا؟!».

قالَ عثمانُ رضى الله عنه : «إنَّ اللهَ قَدْ أعطانى بكلٍّ درهم عَشرة، الحسنة بعشرِ أمثالِها، فهل عِندكُم زيادة؟».

قالوا: «لا».

قال عثمانُ : «فإنى أشْهِدُ اللهَ أنى جعلتُ ما جاءت به هذه الجِمالُ صَدَقَةً للمساكين وفقَراء المسلمين».

ثم أخَذَ عثمانُ بنُ عفانَ يُوزِّعُ بضاعتَهُ، فما بَقِىَ مِنْ فقراءِ المدينةِ واحدٌ إلاَّ أخَذَ ما يكفيه ويكفى أهلَه.

٤٠ - الثعبان و الأخوان

كانَ لأخَوَيْنِ أغنامٌ كَثيرةٌ تَرْعى فى أرْضِهما الواسِعَة. لَكنْ، مَرَّتْ شُهورٌ لم يَنْزِلْ فيها المَطَرُ، فَجَفَّت الأرضُ وماتَ الزَّرعُ، وجاعَت الأغْنامُ وكادَتْ تموتُ مِنَ العَطَشِ. وكانَ بِجوارِهما وَادٍ مَلِيءٌ بالأشجار والأعشابِ الخَضْراء والماء الكَثير. وكانَ هُناكَ ثعبانٌ كَبيرٌ يَحْرُسُ هَذا الوادِىَ، ويَلْدَغُ كلَّ مَنْ يَقْتَرِبُ مِنَ المَكانِ وَيَقْتُلُه.

قالَ الأخُ الأصْغَرُ لأخيهِ الأكْبَرِ: «ما رَأْيُكَ؟ أذْهَبُ بِالأغْنام إلىَ هَذا الوادى، وأرْعاها هُناك، حتى تَكْبرَ وتَسْمَنَ».

فأجابَهُ أخوهُ الأكْبَر قائلاً: «لا يا أخى، لا تَذْهَبْ إلىَ هُناكَ أبدًا، فأنَا أخافُ عَلَيْكَ مِنْ خَطَرِ الثُعبان الَّذى يَقْتُلُ كُلَّ مَنْ يَقْتَرِبُ مِنَ الوَادى».

لَم يَسْمَع الأخ الأصْغَرُ نَصيحَةَ أخيه، وَساقَ غَنَمَهُ إلىَ الوادى، وبَقى هُناك وَقْتًا يَرْعاهَا حَتى اطْمأنَّ. فَجأةً.. ظَهَرَ الثُعبانُ، فخافَ الرّاعى الصغيرُ، وَحاوَلَ أنْ يَنْجو بِنفَسْهِ وَيَهرُبَ.. لَكنَّ الثُعبانَ كانَ أسرعَ مِنْهُ فَلَدَغَهُ، وَماتَ فى الحالِ.

حَزِنَ الأخُ الأكبرُ عَلى أخيه حُزْنًا شَديدًا، وقالَ: «كَيْفَ يَهْنأ لِىَ العَيْشُ بَعْدَ أخى .. لا قيمَةَ للحَياة مِنْ بَعْدِه، لا بُدَّ أنْ أذهبَ إلى الوادى وأقْتُلَ هذا الثُّعبانَ الشريرَ الذى حَرَمَنى مِنْ أخى الحَبيب، فإنْ قَتَلْتُه استراحَتْ نَفْسى! وإنْ قَتَلَنى لَحقْت بأخى!

ذَهَبَ الأخُ الأكبرُ إلىَ الوادى لِيَبْحَثَ عنِ الثُّعبان. بَعْدَ قَليلٍ شاهَدَ الثُّعبانَ يَزحَفُ فَوقَ فَرعِ شَجَرَةٍ كَبيرة! قالَ الثُّعبانُ: «هل تُوافقُ عَلَى أن تُصالحَنى، ونتَعاهَدَ عَلَى أنْ نَعيشَ مَعًا فى أمْنٍ وَسَلام، وأتْرُكَكَ تَرْعى غَنَمَكَ فى هَذا الوادى كَما تَشاء، وأعطيكَ كُلَّ يومٍ دينارًا». وافَق الأخُ الأكبرُ، وتَعاهَدَ الاثنانَ عَلى الأمانِ.

وكُلَّ صَباحٍ كانَ الأخُ الأكبَرُ يَذْهَبُ إلى الوادِى، ويَرْعى غَنَمَهُ هُناكَ، وفى آخرِ النهارِ يُعطيهِ الثُّعبانُ ديناراً.

كَثُرَ مالُ الأخِ الأكبَرِ وأصبحَ غنيّا. وذاتَ يومٍ تَذكَّرَ أخاهُ الذى قَتَلَهُ الثعبانُ، وقالَ لنَفْسه: «كَيْفَ أعيشُ مَعَ قاتِلِ أخى؟ وكَيْفَ أصالِحُهُ وأعاهِدُه؟ لا بُدَّ أنْ أتَخَلَّص مِنْ هَذا الثُّعبانِ الشريرِ!».

أحْضَرَ الأخُ الأكبَرُ فأسًا، واختَبَأ حتَّى لا يَراهُ الثُّعبانُ. وانتظَرَ قليلاً حتَّى مَرَّ الثعبانُ مِنْ أمامه فَهَجَمَ عَلَيْه. لَكنَّ الثعبانَ استطاعَ أن يَهْرُبَ، جَرى الرَّجُلُ وراءَهُ، وقَبْل أن يَدْخُلَ الثُّعْبانُ الجُحْرَ ضَرَبَهُ بالفأسِ ضَرْبَةً قَويةً أخطأت الثُّعبانَ، وأصابت الجُحْرَ وتركَتْ بِهِ عَلامةً ظاهِرَةً. اختَفَى الثّعبانُ داخِلَ الجُحْر وبَقِىَ هُناكَ.

قَطَعَ الثعبانُ عَنِ الرّجُلِ الدِّينار الَّذى كانَ يُعْطيه لَهُ كُلَّ يَوْم، ونَدِمَ الرجُلُ عَلَى ما فَعَلَ، وَخافَ أنْ يَنتقِمَ مِنهُ الثُّعبان، فَذَهَبَ إليْه وعَرَضَ عَلى الثُّعْبان أنْ يَتصالَحا ويَتَعاهَدا مِنْ جَديد. ابْتَسَمَ الثعبانُ وقال: «كَيْف أعاهِدُكَ وَهَذا أثَرُ فَأسِكَ واضِحٌ عَلَى جُحْرى؟ أنْتَ خائنٌ كذّابٌ، لا تُحافِظُ عَلَى العَهْدِ، انْصَرِفْ بَعيداً وإلا قَتَلْتُكَ!».

٤١ - وفاء فرس

قامت الـحربُ بيْن قبـيلتيْن، واسـتمـرَّت المعـاركُ بينهمـا شهوراً طويلـة. وكانت الحرب تتوقفُ أحيـانًا أيامًا قليلة، تَجْمَعُ فيهـا كلُّ قبيلة قَتلاها، وتجهِّـزُ أسلحتَها، ثُم تستأنفُ القـتالَ مَرَّةً أخرى، وذاتَ مرَّة. كَلَّفَ قائدُ الـقبيلة فارسًا مِنْ أشجعِ فُـرسانها، ليذهَبَ إلى قبيلة الأعداء، ويَعـرِفَ أخبارَها، ويعودَ بسرعةٍ ليُخبـرَ أهلَ قبيلته بما رأى وبما سَمِع.

خرجَ الفارسُ علَى جَـوادِه العَربىِّ الأصيل، وقد لبِس درْعَه، وحَمَلَ سَـيْفَه، انطلقَ الفارسُ فى اتجاه معـسكرِ الأعداء، واقتربَ مِن خيامِ الأعداء، والتفَتَ.. فـإذا جماعةٌ من الفُرسـانِ تَلْتفُّ حَولَه من كُلِّ جـانب، أخرجَ الفارسُ سـيفَه، وراحَ يـضرِبُهم بكُلِّ قُوَّة، لكنَّ كثرةَ الأعداء غَلَبَتْ شجـاعَةَ الفارس، فَجَرحوه، ووقعَ علَى الأرض، أسرعَ فُرسـانُ الأعداء، وقـيَّدوه بالحـبال، وحَـمَلوهُ إلى خـيامِهـم، ثُم وضعـوهُ فى خَيْـمة، وتركوهُ فيها.

أقبلَ اللَّيلُ، وأظْلَمَت الدُّنيا، والفارسُ وحيدٌ فى الخَيْمَة يتألَّمُ مِن جراحه، ويتوجَّعُ من قيوده، ولا يستطيعُ النوم، وفجأةً سَمِعَ صَهيلَ فَرَسه، وأحَسَّ فى صَوْتِ الفَرَسِ ما يُشبِـه الألَمَ والشكوَى، جَمَعَ الفارسُ الجريحُ مـا بَقِىَ مِن قُوَّتِه، وتحامَلَ علَى نفـسه، وأخذ يَزْحَفُ عَلَى الأرضِ - وهو مقيَّد - إلى مَكانِ الخيول، ورأى فَرَسَهُ مَرْبوطًا فى شجرة، فَكَّرَ الفارسُ أن يَفُكَّ قَيْدَ فَرَسه، ويُطلِقَ سَراحَه، ليعودَ إلى قبيلتِه، فَيَعْرِفَ أهلُ القبيلةِ ما حَدَثَ له، ويَحْضُروا لإنقاذِه!

اقتَـربَ الفارسُ مِنْ حِصانه، كـانَتْ يَداهُ وَرِجْلاهُ مقـيَّدةً بالحبل، فَكَّ الفارسُ قـيد الحصانِ بأسنانِه، قال الفارسُ: «هيَّا، انطلِقْ أيُّها الفَرَسُ، ارجِعْ إلى خيامِنا، أسرِعْ».

استدارَ الحصـانُ نحوَ صاحبه، ووَقَفَ ينظرُ إليه حَزينًا علَى مـا أصابَه، كأنه يقول: «كَيفَ أرجِعُ وَحدى، وأترُكُكَ مُصابًا مُقيّداً فى يدِ الأعداء؟!».

نَظَرَ الحصانُ إلى جِسمِ صاحِبِه فَوَجَـدَهُ مُقَيَّداً بحبلٍ، فقَبَضَ الفرَس بأسنانه علَى الحَبل، ورَفَعَ صاحِبَه عن الأرض، وانطلقَ بعيداً عَنْ خيامِ الأعداء.

كـانَ الطريقَ طويلاً، والحمْلُ ثقـيلاً، لكـنَّ الحصـانَ لم يستَسلِم للتعب، جَـرَى، وجَرَى، ولم يتـوقَّفْ إلا عندَما وَصل إلى خـيامِ قبـيلته، أنْزَلَ الحـصانُ صاحـبَه علَى الأرضَ برِفق، وأخَذَ يَصْهلُ بصوتٍ ضَعيفٍ مَريض، وَهو يكادُ يَقَعُ علَى الأرض!

سَمِـعَتْ زَوْجَةُ الفارسِ صَـوْتَ صَهـيلِ الحصان فَـتَنَبَّهتْ وأسـرَعَتْ إليه، وَصلت الزوجةُ إلى زوجِها الفارس بِصعوبة، فَكَّت الزوجةُ قـيودَ زَوْجِها بِسُرْعَة، قامَ الفارسُ إلى حِـصانِه يُحـاولُ أنْ يُسْعِـفَه، لكنْ.. مِنْ غَـيْرِ فـائدة! كانَ الحـصانُ قَدْ مـاتَ مِنَ التعب!

حَـزَنَ الفارسُ علَـى حِصـانه حُـزنًا شديداً، وتَنَاقَـلَت القبـائلُ حكايةَ هذا الفَـرَسِ الوَفِىِّ، وبَقِيَتْ حِكايَتُهُ بَيْنَ الناسِ مثالاً علَى الإخلاصِ والتضحِيَة.

٤٢ - الرجل الصالح والكلب

كانَ رَجُلٌ مُسافراً فى الصحراءِ فى يوم شـديد الحرارة. والشمسُ ترسلُ أشعَّتَها الملتهبةَ عَلَى الرمال. انتـهَى كُلُّ ما مَعَ الرجلِ مِنْ ماء، وأحسَّ بالعَطَشِ الشَّديد، سارَ الرجلُ يَميناً وشِمالاً يبحثُ عَنِ الماءِ بِلا فائدَة، شَعَرَ الرجلُ بالتَّعَب فاسْتَراحَ بَعْضَ الوقتَ، ثم واصَلَ سَيْرَهُ يَبْحَثُ عَنِ الماءِ.

وَجَدَ الرجلُ فى طريقه بِئْراً.. فَرِحَ الرَّجُلُ وقالَ لنفسه: «الحمدُ لله، أخيراً وَجَدْتُ الماءَ. كِدْتُ أموتُ مِنَ العَطَشِ فى هَذا الجَوِّ الحارِّ، شكراً لله لا يَنْسَى عِبادَهُ!».

نَظَرَ الرجلُ فى البِـئر، فَوَجَـدَها عَميـقةً، ووَجَـدَ الماءَ بَعيـداً، ولَيْس هُناكَ دَلْوٌ ولا حَبْل. نَزَلَ الرَّجُلُ إلى قاعِ البِئْر، فَوَجَدَها عَمـيقةً، ووَجَدَ الماءَ بَعيداً، ولَيْس هُناكَ دَلْوٌ ولا حَبْل. نَزَلَ الرَّجُلُ إلى قاعِ البِئْر، وراحَ يَشْـرَبُ ويَشْرَبُ حَتَّى ارْتَوَى، حَمِدَ الرجُلُ ربَّه، وخرَجَ مِنَ البِئْرِ لِيَسْتَعِدَّ للسَّفَرِ مِنْ جَديد.

الْتَفَتَ الرَّجُلُ فَـوَجَدَ كَلْبًا يَلْهَثُ مِنَ التَّـعَبِ والعَطَشِ ويَزْحَفُ على الأرْضِ، يأكُلُ التُّـرابَ المُبْـتَلَّ الذى حَوْلَ البِـئرِ مِنْ شِـدَّةِ العَطَش. قـالَ الرجلُ لنفسـه: «هَذا الكَلْبُ المسكينُ يَشْعُرُ الآنَ بِما كنتُ أشْعُرُ بِهِ مِنْ عَطَشٍ مُنْذُ لَحَظات. ولا شَكَّ أنَّهُ يَتألَّمُ كما كُنْتُ أتألَّمُ، لا بُدَّ أنْ أسقِيَهُ وأنْقِذَهُ مِنَ المَوْت».

بَحَثَ الرَّجُلُ عَنْ إناء يَمْلَؤُهُ ماءً فَلَمْ يَجِدْ . احْتارَ الرَّجُلُ ماذا يَفْعَلُ؟ وفَكَّرَ بِسُرْعَة، أخـيراً جـاءَتْهُ فكرةٌ، خَلَعَ الرَّجُلُ خُفَّـهُ ونَزَلَ فى البِـئرِ مَـرَّةً أخْرَى. مَـلأَ الرَّجُلُ خُفَّـهُ بالماء، وَخَـرَجَ بِسُرْعَة، شـاهَدَ الكَلْبُ الرَّجُلَ يَحْمِلُ الخُفَّ المَـملوءَ بالماءِ فَتَـحَرَّكَ نَحْوَهُ. أمْسَكَ الرَّجُلُ الخُفَّ وقرَّبَهُ مِنْ فَمِ الكَلْبِ حَتَّى يَشْرَب.

شَـربَ الكَلْبُ كُلَّ مـا فى الخُفِّ مِنْ مـاء.. كَـرَّرَ الرجُل هذا العَـمَل عِـدَّةَ مَـرَّاتٍ والكلْبُ يَشْرَبُ والرَّجُلُ يربتُ عَلى ظَهرِهِ برِفقٍ وَعَطْفٍ.

فَرَغَ الكَلْبُ مِنَ الشُّرْبِ، وَذَهَبَ عَنْهُ العَطَشُ وَأخَـذَ يَدورُ حَوْلَ الرَّجُلِ، وَيَهُزُّ ذَيْلَهُ وهو فَرْحانُ، كأنما يَشْكُرُ الرَّجُلَ الطَّيِّبَ.

شَعَرَ الرَّجُلُ بالسَّعادَةِ والسُّرورِ لأنَّهُ أنْقَـذَ حَياةَ ذَلكَ الكلبِ البائِس، اطمأنَّ الرَّجُلُ عَلَى الكلبِ. ثم واصَلَ رِحْلَتَهُ فى الصَّحْراءِ.

شَكَرَ اللهُ لِهَذا الرَّجُلِ الصالِحِ عَمَلَهُ الطَّيِّبَ النبيلَ، وَغَفَرَ لَهُ جَميعَ ذُنوبِهِ.

٤٣ - عمر والأسرة الفقيرة

خرج عُـمَرُ بنُ الخطـاب - رضى الله عنه - ذاتَ ليلة، ومَعَـهُ خادمـهُ. سارَ عـمرُ وخَادِمُهُ فى شـوارعِ المدينة. رَأى عمرُ ناراً منْ بَعيد. قـالَ عمرُ رضى الله عنه: «أرى ناسًا يُقاسون البردَ، فَهَيَّا بنا إليهم لنعرِفَ حالَهُم».

أسرَعَ عمرُ وخادمُه إلى المكان. اقتربَ عمرُ وخادمُه، فوجَدا امرأةً ومعَها أولادُها الصِّـغار. جلَسَ الأولادُ حَـوْلَ قِدرٍ كبـيرةٍ، والقِـدْرُ فَوْقَ النار، كـان الأولادُ يتألَّـمون ويبكون.

قـالَ أحدُ الأولاد: «أنا جَـوْعان، أريـد الطعامَ يا أمى. لم آكُلْ مـنذُ يومَيْن، والجـوُّ بارد». فقـالت الأمُّ: «انتظرْ أنتَ وإخوتُـك قليلاً حتى يَـنْضَجَ الطَّعامُ». قـالَ وَلَدٌ آخر: «انتظرْنا ساعات ولم نأكُلْ، إلى مَتَى ننتظرُ يا أمّى؟!». وَقَفَ عُمَرُ - رضى الله عنه - قَريبًا مِنَ الأسرة وقال: «السلامُ عليكُم». فقـالت المرأة: «وعليكَ السلامُ». فقال عمرُ «هَلْ أقتربُ؟». أجابتِ المرأة: «اقْتَرِبْ وَمَـعَك الخير، أوْ اتركُنا واذْهَبْ». فقال عمرُ: «ما عِنْدَكُم؟» فقالت المرأةُ: «نَزَلَ علينا الليلُ والبَرْدُ، ونحتاجُ إلى الطَّعام».

نَظَرَ عُمَرُ - رضى الله عنه - فَوَجَدَ الأولادَ حَوْلَ القِدْرِ الكبيرةِ والنارُ تحتَها. سَألَ عُمَـرُ - رضى الله عنه - المرأة: «لماذا يـبكى الأولادُ؟». فقالت المـرأةُ: «مِنَ الجوعِ والبـردِ». فسـألَ: «وأىُّ شَىءٍ فى هذهِ القِـدْرِ؟». فقَـالتِ المَـرأةُ: «ماءٌ حـتى يسكُتـوا ويناموا».

تألَّمَ عمـرُ مِنْ كلامِ المـرأةِ ومَنْظَرِ الأولاد، وأسرعَ هو وخادمُـه نَحوَ مـخازن بيْتِ المال.. أخـرجَ عمـرُ كيـسًا كَـبيـراً من الدقيق، وقـال لخادمه: «احـملْهُ عَلَىَّ». فـقالَ

الخادمُ: «أنا أحملُهُ عنك». غَضبَ عُـمَرُ - رضى الله عنه - وقال: «أأنتَ تَحْمِلُ عنّى ذَنْبِى يومَ القيامة؟!».

وَضَعَ الخادمُ كـيسَ الدقيقِ فَوْقَ ظَـهْرِ عُمَـر، وَحَمَلَ بَعْضَ الزَّيتِ. أسْرَعَ عُـمَرُ - رضى الله عنهُ - وهو يحملُ الكيسَ الثـقيل. سارَ عمرُ وخـادمُه إلى مكانِ المرأة، ثم أنزلَ كيـسَ الدَّقيقِ علَى الأرض. فَـتَحَ عُمَـرُ الكيسَ، وأخَذَ منْهُ بعضَ الدَّقـيق. جَلَسَ عُـمَـرُ قـريبًـا من النار، ووَضَعَ الدقـيق والزيتَ فى القِـدْر. نَفَـخَ فى النارِ حَـتّى نَضجَ الطعام. أنْزَلَ عمـرُ القِدرَ عَلَى الأرض، ثم وضَعَ الطعامَ فى طبقٍ كبيـر، وقالَ للمرأة: «نادى أوْلادَك».

اجتمعَ الأولادُ حَوْلَ الطّبقِ الكبيرِ يأكلُون، وانْتَظَرَ عُـمرُ وخادمُه قَريبًا منهم. قالَت المرأة: «جزَاكَ اللهُ خيـراً». فقالَ عمـر: «اذْهَبى غداً إلى عُمَرَ أميـرَ المؤمنين، وسوف تجدينَنى هُنَاكَ إن شاءَ الله».

وَقَفَ عمرُ - رضى الله عنه - بَعيداً ينظُرُ إلى الأولادِ حتَّى أكلُوا وشبِعوا، ثم رأى الأولادَ يلعبُـون ويحكون. وبعدَ قليلٍ نامَ الأولاد، فـقالَ عمـرُ لخادمِه: «الحـمدُ لله. الآنَ نستطيعُ أن نَمْشِىَ، شبِعَ الأولادُ وناموا. هَيا بنا».

وانْصَرفَ عمرُ - رضى اللهُ عنه - وخادمُه.

٤٤ - ما أرخص الجمل!

كانَ لِمُزارعٍ جَـمَلٌ يحبُّهُ كثيراً، ويعـتمدُ عليْه فى الانتقـال بيْن القريةِ والمدينة كُلَّ يَوْمٍ لِيبيعَ حـاصِلات مَزرعتِه. فكانَ يَحْـملُ عليْه الخُضَرَ والفـاكهَةَ ويبيعُـها فى سوقِ المدينةِ، ويشتَرى حاجياتِه ولوازِمَ بيْتِه وَيحملُها عَلَى جَمَلِه، ثُمَّ يَرْكَبُهُ عائداً إلى القريةِ حَيْثُ زوجتُه وأولادُه.

حمَّلَ عَبْدُ الوهاب جَـمَلَه بِطِّيخًا وشَمّامًا، وتَوَجَّهَ إلـىَ سوقِ المدينة، وباعَ حِمْلَهُ، وأرادَ أنْ يشتَرى أرزًا وَسُكَّرًا. دَخَلَ عبدُ الوهابِ البِـقالَةَ واشتَرىَ ما يُريدُ من طَلَبات، ولَمّا خَرَجَ لَمْ يَجِدْ جَـمَلَهُ وأخَذَ يصيحُ: «أيْنَ جَمَلِي؟ ضاعَ جَمَلى! يا مُـصيبتى! أيْنَ أنْتَ يا جَمَلى الغالى؟!».

نادَى عَبدُ الوهاب الشُرطىَّ ، وَطَلَبَ منهُ أنْ يبحثَ لَهُ عنِ الجَمَلِ المفقُودِ، ويَقبِضَ عَلى اللُّصوصِ الذين سرَقوهُ.

بَحَثَ الشرطىُّ مَعَـهُ فى كُلِّ مكان ولَمْ يَجدْهُ، قالَ الشرطىُّ: «لا تَيْأسْ؛ فـرُبَّما سارَ هُنا أو هنَاكَ، وَضلَّ الطريقَ، واصلِ البَحْثَ وستَجدُهُ - إنْ شاءَ الله».

بَحَثَ عـبدُ الوهابِ عَنْ جَـمَلِه فى كُلِّ مكان، لَكنْ بـلا فائدة. وبَعْـدَ بَحْثٍ طَويلٍ، وتَعَبٍ كثيرٍ، أقْسَمَ عبدُ الوَهّابِ أمامَ مَنْ فى السُّوقِ أنْ يبيعَ الجَمَلَ بِدينارٍ واحدٍ إذا هُوَ عثَرَ علَيْهِ.

تَعَـجَّبَ الناسُ مِنْ عبـدِ الوهّابِ الذى أعْلنَ أمامَـهُم هَذا السِّعْـرَ الرَّخيصَ لِجَـمَلِه الغالى.

وبينما كانَ عـبدُ الوهاب يدورُ فى السُّوق فوجِئَ بِجَـمَلِه أمامَه يَسيرُ وَحـيدًا! فَرِحَ

عبـدُ الوهابِ بالعـُثورِ عَلَى جَـمَلِه، وَجَذَبَهُ من حَـبْلِه، وَربَّتَ عَلَى رقَبَـتِه، لَكِنَّهُ تَـذكَّرَ القَسَمَ ، فَتَضايَقَ ، وقالَ لِنفْسِه:

«لَيْتَنِى ما تَسَرَّعْتُ وَحَلَفْتُ أمامَ الناسِ! ماذا أفعلُ الآنَ؟».

فَكَّرَ عبـدُ الوَهَّابِ قليلاً،وأَحْـضَرَ قطَّةً صغـيرةً، ووَضَعَ فى رقَبَـتِها حَـبْلاً، ثم ربَطَ القِطَّةَ فى الجَـمَلِ، ووَقَفَ وَسْطَ السُّـوقِ ينادى بأعْـلَى صَوْتِه: «مَنْ يَـشْتَـرِى الجَـملَ بِدِينار، والقِطَّةَ بألْف دينار».

تَجَمَّـعَ الناسُ حَوْلَ عَـبْدِ الوَّهابِ مَنْ كُلِّ مَكان، وَهُمْ لا يُصَـدِّقُونَ مـا يَسْمَـعون. وصاحَ عـبدُ الوهاب مَرَّةً أخـرى: «أيُّها الناسُ، أبيعُ الجَـمَلَ بدينارٍ، وأبيعُ القِطَّةَ بِألْفِ دينارٍ! لَكِنْ لا أبيعُهُما إلاَّ مَعًا. نَعَم، لا أبيعُ الجَمَلَ والقِطَّةَ إلا مَعًا!».

ضَحكَ النَّاسُ، وفَهِموا أنَّ عبـد الوَهاب لا يُرِيدُ أنْ يبيعَ جَمَلَهُ. انصرَفَ الناسُ عَنْه وَهُم يَقولون: «ما أرْخصَ الجَمَلَ لَوْلا القِطَّة!».

ما أرْخَصَ الجَمَلَ لَوْلا الهِرَّة!».

رَكِبَ عَبْدُ الوَهّابِ جَمَلَهُ، وَعادَ إلىَ قَرِيَتِه.

٤٥ - الرايــة

بَعَثَ الرسولُ ﷺ برسالة إلى حاكم مَدينَة (بُصْـرَى) بالشام، وهى تابعةٌ لإمبراطور الرومِ يدعـوهُ فيـها إلى الإسـلام، أخَـذَ حاكِمُ مـدينةِ بُصْرَى حامِلَ الرسـالةِ، وقَيَّـدَهُ بالحبالِ، ثم قَتَلَهُ.

فَجَهَّزَ الرسولُ ﷺ جيشًا للسَّيْرِ إلى بلادِ الرّوم، وكانَ هذا فى السنة الثامنةِ للهجرةِ. وكانَ عَدَدُ جيشِ المسلمين ثلاثَةَ آلاف، بقيادة زيد بن حارثة.

وقال لهم الرسولُ ﷺ إنه إذا أصيبَ زيدٌ يتولَّى جـعفرُ بنَ أبى طالب قيادةَ الجيشِ، وإذا أصيبَ جَعْـفَرٌ يتولى القيادةَ عـبدُ الله بنُ رَوَاحةَ. فإذا أصيب عـبدُ الله بنُ رَوَاحةَ يختارُ المسلمونَ واحدًا منهم لقيادتهم.

وتوكّلَ المـسلـمـون على الله، وسـاروا فى الطريق إلـى بلادِ الرومِ، سـارُوا أيامًـا وليالىَ فى قَلْبِ الصَّحراء، إلى الشمالِ الغربىِّ، وقَطعوا مئات ومئاتٍ من الأميال.

وعَرَفَ الرومُ، فَـجمعـوا لهم جيشًـا ضخمًـا فيه نحوُ مـائة ألف جندىٍ من الرّوم، ومائة ألفِ جندىٍّ مـنْ قبائلِ العـرَب، المتعـاونةِ مَعَ الرومِ، وفَكَّرَ المسلمـون وقالُوا: «نكتب إلى الرسول ﷺ فنخبرُهُ بعددِ عَدُوِّنا، فإمّا أن يرسلَ إلينا مَدَدًا منَ الرجالِ، وإمّا أنْ يأمُرَنا بما نَفْعَلُ».

ولكنَّ عبدَ الله بنَ رَواحَةَ قال: «يا قوم، لقـد خَرَجْنا نَطْلُبُ أحدَ أمْرَيْن، النَّصر، أو الشـهادة والجنة. ونـحنُ لا نُقاتِلُ الناسَ بِـعَدَدنا ولاَ بقُـوَّتنا، ولكنْ بهَـذا الدِّينِ الّذى أكْرَمَنا اللهُ به، وما النَّصْرُ إلاّ منْ عنْدِ الله».

فـقالُوا: «والله لَقَـدْ صَدَقَ ابـنُ رَوَاحَةَ». واسـتَعَـدّوا للقتـال، والتَـقَى المسلمـونَ

بِعَدَدِهِمُ القليل مَعَ جحافلِ الروم بأعْدادهمُ الكبيرة الهائلَة، ودارَ القتالُ الرهيبُ بجوار قرية اسـمُها (مُؤْتَةُ). وكـانَ المسلمون بقـيادة زيد بْنِ حارثَة الذى يَحْـمِلُ رايةَ رسولِ الله ﷺ. وقاتَلَ زيدُ بنُ حارثَةَ - رضى الله عنه - قتالَ الأبطال واسْتُشْهِد.

فأخَذَ الراية جعْفَرُ بْنُ أبى طالب - رضى اللـه عنه - وقاد المسلمينَ بقوة وإيمان. فَقُطِعَتْ ذراعُـهُ اليُمْنَى وسالَ الـدَّمُ عَلَى ثيابه. فلم يهتَمَّ بالـدَّمِ أو بالألَم وَحَمَلَ الرايةَ بذراعه اليُسْرى.. ثم قُطِعَتْ ذراعُهُ اليُسْرَى، لكنَّ الرايةَ لم تَسقطْ منه، واحتَضَنها عَلى صَدْرِه بِـبَقايـا ذراعَيْـه المقطوعَـتَيْن وظلَّتْ رايةُ رسـول الله ﷺ مرفـوعةً. حَـتى قُـتِلَ جَعْفَر. فوجَـدوا فى جِسمه أكثرَ منْ تسْعين جُرْحًـا، ما بَيْنَ ضربَة سَيف أو طَعنة رُمحٍ أو سَهْمٍ. كُلُّها منَ الأمامِ.

وأخبـرَ الرسولُ ﷺ عَنْ جَعْفَـر بْن أبى طالِب: فقالَ: «إنَّ اللهَ أبْدَلَهُ بِيَـدَيْه جَناحَيْن يَطيرُ بهما فى الجنَّة حَيْثُ يشاءُ».

ثم أخذَ الرايةَ عبدُ الله بنُ رَوَاحـةَ، فلَمْ تَزَلْ معَه حتَّى لحقَ بصاحبَيْـه زَيْد وجَعْفر، فلقىَ اللهَ شهيدًا، رضى الله عنهم.

اختار المسلمون بَعْدَهُ خالدَ بنَ الوليد - رضى اللهُ عنه - قائداً للجيش.

وكان الليلُ قد جاءَ، فماذا فعل خالدٌ، سيفُ الله؟

لَقَدْ غَيَّـرَ باللَّيْل تَرتيبَ جَيْشه، فَنَقَلَ الجنودَ الذين فى المَـيمَنة، أى الذين عَنْ يَمينِ الجَيْش، نَقَلَهُم مَعَ راياتِهم وأعْلامِهم إلى المَيْسَرة، أى إلى يسار الجَيْش. ونَقَلَ الذّين فى المَيْسَرة، إلى الميْمَنَة، ونقَلَ الذين كانُوا فى الوَسَطِ إلى مكانٍ آخَرَ، وأتى بغَيرْهم، وهكذا، ثُمَّ وَزَّعَ خـالدُ بنُ الوليـد - رضى الله عنه - عَدَدًا كـبيرًا منَ الرجـال خَلْفَ الجيش، وأمَـرَهُمْ أنْ يُحْدِثوا ضَجَّةً كـبيرةً عِنْدَمـا يَطْلُعُ الصَّباحُ، وكأنَّهُم قـادمون مِنْ بَعيد للانضمامِ إلى جَيْشِ المُسلمين.

وَعَنْدَما جاء الصَّباحُ سَمِعَ الرومُ تَهْليلَ المسلمين القادمينَ مِنْ بَعيدٍ وتَكْبيرَهُم، فَظَنّوا أنَّ مَدَدًا كبيرًا قَدْ جاءَهُم.

ونَظَرَ جُنودُ الروم أمامَهُم فلم يجدوا الجنودَ والرايات الإسلامية التى كانَتْ أمامَهُم بالأمسْ، ورَأوْا جنودًا ورايات أخْرَى؛ لأنَّ خالدَ بْنَ الوليد - رضى الله عنه - قَدْ غيَّرَ أماكنَ الجنودِ والرّايات، فحسبوا أنَّ هؤلاءِ جنودٌ جُدُدٌ انْضَمّوا إلى جَيْشِ المُسلمين.

خافَ جنودُ الرُّومِ ودَبَّ الرُّعْبُ فى قُلوبِهم، وقالُوا: «إذا كانَ ثَلاثَة آلاف جُنْدِيٍّ مُسْلِمٍ قدْ فَعلُوا بنا ما فَعلُوا، فماذا سَيَحْدُثُ بَعْدَ أنْ جاءَهُم مَدَدٌ كبير؟ وهَجَمَ المسلمونَ بقيادة خالد - الَّذى سمَّاه النبيُّ ﷺ سَيْفَ الله - فَفَتَحَ اللهُ علَيْهِم، وقَتَلُوا مِنَ الرومِ عَدداً كبيراً، ثم رَجَعَ المسلمون إلىَ المدينة المنوَّرَة.

ولم يَسْتَطعْ جَيْشُ الرّوم الهائلُ الكبيرُ، أنْ ينالَ مِنَ المسلمينَ أو ينتصرَ عليهم رغمَ قلَّةِ عَددهم.

٤٦ -أيهما الخليفة؟

فى أثناء فَتْحِ بلادِ الشَام، وصَل جَيْشُ المسلميـن إلى بيْتِ المَقْدس، وحاصَـرَ المَدينةَ مُدَّةً طويلةً، وأرْسَلَ قائدُ جيْشِ المُسلمين أبو عُبَيْدَةَ بنُ الجرّاح إلىَ أهل بيْتِ المَقْدسِ كَىْ يَخْتاروا الإسلامَ، أوْ دَفْعَ الجِزيَةِ نَظيرَ حمايتهم والدِّفاعِ عَنْهُمْ وتوفيرِ الأمْنِ لَهُمْ، وإذا لَمْ يَقْبَلوا هَذا أوْ ذَاكَ فَلَيْس هُناكَ إلاَّ الحَرْبُ والقتالُ.

طالَ الحِصـار، وقَلَّ الطَّعـام فى بيْتِ المَقْدسِ، وأدْركَ أهْلُها أنَّ المُسلمين سيَنْتَصرون عليْهم، فأرْسَلُوا رَجُلاً منهُمْ إلىَ قائد جَيْشِ المُسْلمين، وأخْبَرَهُ أنَّ أهْلَ بَيْت المَقْدس مُستَعدون للاستْسلام بِشَرطِ أنْ يُسلِّموا المَدينَةَ إلىَ أمير المؤمنينَ عُمَرَ ابنِ الخطاب.

فأرْسلَ أبوعُبَيدَةَ بنُ الجرّاحِ برسالَة إلى عُمَرَ بنِ الخطّاب - رضى الله عنه - يُخْبِرُه فيها بِذلكَ. غادَرَ عُمرُ بنُ الخطابِ المدينةَ المنوّرةَ. وَسارَ فى طريقهِ إلىَ بَيْتِ المَقْدسِ ومَعَه جَمَلٌ واحدٌ وخادمٌ صَغيرٌ.

قالَ عمرُ بنُ الخطاب - رضى اللهُ عنه - فى تَواضُعٍ شَديد: «يا غُلامُ، نَحْنُ اثنان، والجَمَل واحدٌ. فإذا ركبْتُ أنا ومَشيتَ أنت ظَلَمتُكَ، وإنْ ركبْتَ أنْتَ ومَشيْتُ أنا ظَلَمْتنى، وإنْ ركبْنا - نحْنُ الاثْنانِ - قَصَمْنا ظَهْرَ الجمَلِ. فَلْنقسم الطَّريقَ بيْننا، أرْكَبُ أنا مرَّةً وتَقودُ أنتَ الجمَلَ، وتركبُ أنتَ مرَّةً وأقودُ لَكَ الجمَلَ، ثُمَّ يَمْشى الجمَلُ جُزْءاً منَ الطَّريق منْ غَيْرِ أن يرْكَبَهُ أحدٌ، حتَّى يرْتاحَ الجمَل منْ وقْتٍ لآخَرَ».

واستَمَرَّ تقْسيمُ الطَّريقِ بيْنَ عُمَرَ بنِ الخَطاب وخادمه الغلامِ والجَمَل حتَّى وَصَلا قريبًا منْ بيْتِ المَقْدسِ، وانْتَهتْ مرْحَلَةُ أميرِ المؤمنين لِيَنْزلَ منَ الجمَل ويَرْكَبَ

الغُلامُ، ويَقودَه عُمَرُ رضى الله عنه، عَنْدئذ قال الغُلام:

«لا يا أميرَ المؤمنين، لَنْ أرْكَبَ الجمَلَ». فقالَ لَهُ عُمَرُ بنُ الخطابِ رضى الله عنه: «جاءَ دوْرُكَ يا غُلامُ، فارْكَبْ». قالَ الغُلامُ: «يا أميرَ المومنين، لا تَنْزلْ، فأنا لَنْ أرْكَبَ، فَنَحْنُ سَندْخُلُ مَدينَة القُدسِ حَيْثُ الخُيولُ والعَرَباتُ المُذَهَّبةُ وإنْ دخَلْنا المدينةَ وأنا راكبٌ الجمَلَ، وخَليفةُ المُسلمين يقودُه فَسَيَسْخَرُ أهْلها منّا، وقَد يُؤثّرُ ذلكَ على نَصْرِنا». قالَ عمرُ رَضى اللهُ عَنْه: «الدَّوْرُ دوْرُكَ يا غُلامُ، فوَالله لأنْزلَنَّ ولَتركَبَنَّ».

ورَكبَ الغُلامُ الجمَلَ، وأخَذَ عُمَرُ بمقوده يَجُرُّهُ منه، فلَمّا بلَغا مَدينَةَ القُدْسِ وجَدا أهلها فى استقبالهما، وعنْدَما شاهدوا المَنْظَرَ ظَنّوا أنَّ الرّاكبَ أميرُ المؤمنينَ، وأنَّ الّذى يقودُ الجمَلَ خادمُهُ.

أقْبَلَ النّاسُ يُحَيُّونَ الغُلامَ، فأشارَ الغُلام بعَصاهُ إلى عمرَ بنِ الخطاب - رضى اللهُ عنه - وقالَ: «لَسْتُ أميرَ المؤمنين، إنّهُ هَذا الذّى يَمْشى ويَقُودُ الجمَلَ!». عنْدئذ أخَذَ رئيسُ القَومِ يبكى، فأقبلَ علَيْه عُمَرُ - رضى الله عنه - يُطَيِّبُ خاطرَهُ. ولَمّا سألَهُ عُمَرُ عَنْ سَبَبِ بُكائه قالَ رَئيسُ القومْ: «إنّما بكَيْتُ منْ شدةّ دهْشَتى، ولأنّنى تأكّدْتُ أنّ دوْلَتَكُمْ باقيةٌ إلىَ نهايةِ الزّمان!».

٤٧ - مروءة ووفاء

فى قديم الزَّمـان كانَ هناكَ مَلكٌ عربىٌّ اسمُـهُ النُّعمان، كان يخرجُ للـصَّيْد، يركبُ فرسَه، وينطلقُ إلى الصحراء، يصطاد ما يقابلُهُ منْ حيوانات.

وذاتَ صباح خَـرَجَ الملكُ النعمانُ للصـيد كعادته، وضَلَّ الطريقَ فى الـصَّحراء، وأرادَ العودَةَ فَلَمْ يَعْـرِفْ، وسارَ الملكُ طويلاً حَـتَّى تعب، وشعرَ بـالجوعِ والعَطَش، نظرَ الملكُ النعمانُ فَرَأى من بعـيد كُوخًا صغيراً، فانطلقَ إليْـه، وطَرَقَ البابَ ففتحَ لَهُ رَجُلٌ بدوىّ. فقالَ الملكُ: «أنا عربىٌّ ضَلَّ الطريقَ، فَهلْ أجدُ لَديْكُم مَكانًا وطَعامًا؟».

لم يَكُنْ فى بيْتِ الرجلِ البـدوىِّ طَعام، فَـذَبَحَ الشاةَ الوحـيدةَ التى عنـدَه، وأعدَّت الزوجة الطعامَ للملك النُعمان، أكَلَ الملكُ حتَّى شبِعَ ، ثم باتَ ليلتَه فى الكوخ.

وفى الصباحِ اسـتيقظ الملكُ النعمان، وشكَرَ البـدوىَّ وزوجَتَهُ، وعَرَّفَهمـا بنفسه، ثم قالَ للبدوىّ: «اطلُبْ ما تشاءُ فأحَقِّقهُ لَك». قال البدوىّ: «سأفعلُ يومًا - يا مولاى - وآتى لزيارتكِ فى قَـصـرِك»، خَرَجَ الـملكُ النعـمانُ منَ الكوخ، وأرشـدَهُ البـدوىُّ لطريقِ العودةِ إلى مملكته. وصلَ الملكُ النعمانُ سالمًا إلى بلده، ونَسِىَ ما حدثَ بينَهُ وبَيْنَ البدوىِّ وزوجته.

وَمَـرَّتِ الأيامُ، وجاءتْ سنةٌ انقـطَعَ فيـها الـمَطَرُ ، وَجَفَّتِ الأرضُ، ومـاتَ الزرعُ والحيـواناتُ، وساءتْ حالُ البـدوىِّ وزوجته وأصـبحـا لا يجدان ما يأكُـلان.. قالت الزوجةُ لزوجـها: «اذهَبْ إلى الملك النعـمان؛ فـقد وَعَدَ أن يُعْطيَكَ كُـلَّ ما تطلُب».

انطلَقَ الرجلُ نحـوَ بلد النُّعـمان، وكَـانَ الملكُ النعـمان لا يحبُّ يومَ الأحَـد منْ كُلِّ أسبوع، ويسميه يومَ البُؤس. وكانَ لا يقابلُ أحـداً فيه أبداً، وإذا قابلَ النعمانُ فيه أحَداً قَتَلَه.

فى هذا اليوم كانَ الملكُ النعمانُ يجلسُ فى القـصرِ وَحيداً. وَصَلَ الرجلُ البدوىُّ إلى قصرِ النعـمانِ وهو لا يَعْرِفُ أنَّهُ يومُ البُؤسِ عندَ النعمان. اقـتربَ الرجلُ البدوىُّ

منْ بابِ القصرِ الكبير، وطَرَقَ البابَ ولم يرُدَّ علَيْه أحَد، وطَرَقَ ثانيةً، ثم ثالثة، وسمِعَ صَوْتَ الملك النعمانِ منَ الداخلِ يَصيحُ: «أيُّها الحارس، مَنْ يَجْرُؤُ أنْ يَطْرُقَ بابى اليوم؟! افتح البابَ وأدخِلْه». فَتحَ الحارسُ البابَ، ودَخَلَ البدوىُّ، فقال لهُ النعمان «وَيْلك! اليومَ يومُ البُؤس، لا يقابِلُنى فيه أحَدٌ إلاّ قَتَلْتُه». ذَكَّرَ الرجلُ البدوىُّ الملكَ النعمانَ بما حَدَثَ بَيْنَهما تلكَ الليلةَ فى الصَّحراء، عَرفَ النعمانُ البدوىَّ، رَجَا البدوىُّ الملكَ أنْ يَعْفُوَ عَنْهُ، فرفض الملكُ وقال: «لو دَخَلَ علَى ابنى - اليومَ - لَقَتَلْتُه».

طلبَ البدوىُّ أن يَأخُذَ بعضَ المالِ، ويَذْهَبَ بِهِ إلىَ أهله، ثُمَّ يعودَ لِيُنفِّذَ فيه رجالُ الملك حُكمَ القتل.

لم يُوافِقِ الملكُ النعمانُ أن يَسْمَحَ للبدوىّ بالذَّهاب. وكان أحدُ الوزراء حاضراً، فقالَ للملك النعمان: «أنا أضْمَنُ البَدَوىَّ - يا مولاى - حتَّى يذهَبَ إلى أهله ويعودَ». فقالَ الملك للبدوى: «أمامَكَ شهرٌ منَ اليوم، تذهَبُ فيه إلى أهلكَ وتعود، ولو انتهَى الشهرُ ولمْ تَحْضُرْ سأقتُلُ وزيرى بَدَلاً منك». التَفَتَ الملك إلى رجاله، وقال: «أعطوا هذا الرجل البدوىَّ مائةً مِنَ الجمالِ، يذهَبُ بها إلى أهلِه، وموعدُنا مثلُ هذا اليوم مِنَ الشهر القادم».

وَدَّعَ البدوىُّ الملكَ النّعمانَ ووزيرَهُ ورجالَهُ، وقادَ الجمالَ فى طريقِهِ إلى أهلِهِ فى الصحراء.

قادَ البدوىُّ الجمالَ فى الصَّحراء، حتَّى وَصَلَ إلىَ كوخه الصَّغير، فَوَجَدَ زَوْجَتَهُ فى انتظاره. ذَبَحَ البدوىُّ جَمَلاً، وأكَلَ هُوَ وزوجَتُه وأولادُه، وَوَزَّعَ منْه علَى الجيران والضيوف، ثمَّ قالَ لِزَوجَته إنَّهُ يَسْتَعدُّ للرحيل مرةً ثانيةً إلى الملك النعمان.

مَرَّ الشهرُ ، وجاءَ اليومُ الموعود، أرْسَلَ الملكُ النعمان يَطْلُبُ وزيرَهُ. جاء الوزيرُ،

ودَخَلَ عَلَى النعمانِ وهو جـالسٌ عَلَى العَرشْ. فقالَ النعمـانُ لوزيره: «اليوم آخِرُ يومٍ فى المُهلَة، وإذا لم يَصلِ البدوىُّ قَبْلَ غُروبِ الشمسِ فسوفَ تُقْتَلُ بدلاً منه».

كانَ البدوىُّ فى هذه الأثناء راكبًا جَمَلَهُ فى طريقه إلى مملكة النعمان، يَئِسَ الناسُ داخلَ قـصرِ النّعـمانِ منْ وُصـولِ البدوىّ، ونادَى الملكُ النّعـمانُ السَّـيّافَ لِيُنَفِّـذَ فى الوزيرِ المسكينِ الحُكم بالقتْل.

وَقَبْلَ أنْ تَغـرُبَ الشمسُ بدَقـائقَ لاحَ مِنْ بعيد جَـمَلٌ يجرى نحـوَ القصر، اقـتربَ الجملُ، وظَهَرَ البدوىُّ راكبًا فَوْقَهُ.. أخيرًا وَصَلَ البَدَوىُّ، ووَقَفَ أمامَ الملكِ النعمان. فقالَ الملك: «أيُّها البدوىّ، أنا فى عَجَبٍ مِنْ أمْرِك، كانَ بإمكانكَ أن تَبْقَى عِندَ أهْلِكَ فى الصَّحْراء، وتَنْجُوَ مِنَ الموت، فما الذى جاءَ بِكَ الآنَ؟!».

أجابَ البـدوىُّ: «الوَعْدُ الذى أخَـذْتُهُ عَلَى نَفْسِـى - يا مولاى - فَأنَا لَـمْ أتعودْ أنْ أخْلِفَ الوَعْدَ أبدًا، وَقَدْ وَعَـدْتُ هذ الرجلَ الشَّهْمَ أنْ أحْضُرَ بَعْـدَ شَهْر، وها أنَذا أفى بوَعْدى، هيَا نَفِّذْ حُكْمَكَ، فأنا مُستعدٌّ لَه».

تَعَجَّبَ الملكُ مما حَدَثَ، تَعَجَّبَ مِنَ الوزير الذى ضَمِنَ رَجُلاً لا يعْرفُه، وَعَرَّضَ نَفْسَهُ للموت ليُحقِّقَ لَهُ رَغْبَـتَهُ فى رؤيَة أهله، وَتَعَجَّبَ كذَلكَ منَ البدوىِّ الذى جاءَتْهُ الفرصةُ لِيَنْجُوَ بنفسه مِنَ القتْل، لَكنّهُ فَضَّلَ أنْ يحافظ عَلَى كَلمته ويحضُرَ فى المَوْعِد، ويُسَلِّمَ نَفْسَه للسيَّاف، حتّى يُنقِذَ الوزيرَ الذى ضَمِنَه.

تَعلَّمَ الملكُ مِنَ الوزير والبدوىِّ دَرْسًا فى المُروءة والوفاء.

عفَا الملكُ النعمانُ عَنِ البدوىِّ الوَفِىِّ، وَسَمَحَ لَهُ بالرُّجوعِ إلى أهلِه.

كما جَعَلَ الوزيرَ مستشارَهُ الأوّلَ وحاملَ أسراره.

ومُنْذُ ذَلكَ الوَقْت تَرَكَ الملكُ النعمانُ تلكَ العادةَ السيئة، ولم يقتُلْ أحدًا.

٤٨ - رعاية الله

كانَ لثَلاثَة إخوة سفينةٌ صَغيرةٌ، وَرِثُوها عَنْ أبيهم، وكانَ أبوهم رَجُلاً صالحًا، وذاتَ يومٍ بينمَا كانَت السفينةُ تستعدُّ للسفر، والمسافرون يركَبون. رأى أصحابُ السفينة أحدَ الشيوخِ يحملُ متاعَهُ، ويقفُ بعيدًا. تَقَدَّم أحدُ الإخوة منَ الشيخِ وسألَه: «هَلْ تريدُ السَّفَرَ أيُّها الشيخ؟» فأجابَ الشيخُ: «نَعَم يا بُنَيّ، ولكنْ، لَيْسَ مَعى نقودٌ الآنَ، وَقَدْ كانَ أبوكُم - رَحِمَهُ الله - ينقُلُنى إلى الشاطِئِ الآخَر ولا أعطيه أجْرًا إلاّ عنْدَ عودَتى».

فقالَ الشابُّ: «مرحبًا بِكَ فى سَفينَتنا، ستسافِرُ مَعَنا بِلا مُقابِل، لنَ نأخُذَ منْك أجرًا».

وَصعدَ إلى السفينة، ثم بَدَأت السفينةُ رحلتها. كانَ هذا الشيخُ نجارًا، وأرادَ أن يَصنْعَ صُندوقًا صغيرًا يَضَعُ فيه أَمْتعَتَهُ. أحضَرَ الشيخُ بعضَ الخَشَب، وراح يَدُقُّهُ بالشاكوش. فَجأةً، سَقَطَ الشاكوشُ منْ يَده، وأحْدَثَ ثُقْبًا فى جدارِ السفينة، وبَدَأَ الماءُ يدخُلُ منَ الثُّقبِ إلى قاعِ السّفينة، والشيخ يحاولُ أنْ يَسُدَّهُ، بلا فائدة.

رأى الرُّكابُ الماءَ يَتَسرَّبُ إلىَ السفينة، فَصاحوا: «النجدةَ النجدةَ.!». حاولَ الركابُ أنْ يَسُدُّوا الثُقبَ وما استطاعُوا. استمرَّ الماء يَتَسَرَّبُ إلىَ السفينة، فزادَ خَوْفُ الناس، ولامُوا الشيخَ، وقالُوا لَهُ: «أنتَ المسئولُ عَنْ هذه المصيبة! سَنَغرَقُ كُلُّنا بِسَبَبِكَ!».

شاهدَ الركابُ سُفُنًا تقتربُ منْ بعيد ففرحوا.. وَصَلَت السفن، وظَهَرَ أنها سُفُنُ قَراصنة البحار الذين يَسْرقونَ السُّفُنَ، رَأى اللصوصُ الماءَ فى قاع السفينة فقالوا: «هَذه سَفينةٌ قديمةٌ ستَغْرَقُ قريبًا بِرُكّابِها». انصرفَ اللصوصُ، وتركُوا السفينة.

فَرِحَ الركابُ لِنَجاتهم منْ هؤلاء الأشرار، وشكَروا الشيخَ؛ لأنَّهُ السَّبَب. قالَ لَهُم الشيخُ: «علَيْنا أنْ نُنقذَ السفينة قبل أن تَغرَق. اشكُروا اللهَ، وادعوه أنْ يُساعِدَنا لِنَنْجَحَ فى سَدّ الثُّقْب».

وبينَما هُمْ مَشغولُون بإخراجِ الماء منَ السفينة رَأوْا طائرًا كبيرًا يطيرُ فَوْقَهم وفى منقاره لفافَـةٌ منَ الكتّان، وحَوْله طيورٌ تُهاجمُهُ وتُحاولُ أنْ تخطفَ منه اللّفافَـة، فجأةً سَقطَتْ لفافةُ الكتّان علَى السفينة، فأسرعَ أحَدُ الإخوة وأمْسكَ لفافة الكتّان وقالَ: «إن خيوطَ الكتان هى أفْضَلُ ما يَسُدُّ ثُقوبَ السَّفينة». ثم سَدَّ الثُّقبَ بالكتّان، فتَوقَّفَ تَسرُّبُ الماء.

قال الشيخُ: «لَقَد استجابَ اللهُ لدُعائنا، فعَلَى القادرِ منكُمْ أنْ يتبرَّعَ ببعْضِ المالِ لنُنفقَهُ فى أعمال الخَيْر».

جَمعَ الرّكابُ عَشرةَ دنانير، ووَضَعوها فى خِزانَة السفينة ليُوزِّعُوها علَى الفُقَراء والمساكين.

رَسَت السفينةُ علَى الشّاطئ الآخر، ونَزَلَ الرّكابُ. قابلَ الرُّكّابُ امرأةً تبكى بشدَّة. سألَها الشيخُ: «لماذا تبكين أيّتُها المرأةُ؟». قالت المرأةُ: «عندى أولادٌ صغار، وأعملُ منْ أجْلِ تربيتهم، أغزلُ عَلَى نَول صغير خيوطَ الكتان ثم أبيعُها فى السُّوق، وبينما كنتُ أشْربُ منَ البئر هَبَط طائر منَ السَّماء، وخَطَفَ لفافةَ الكتّان التى نَسجْتُها وطارَ بهَا بَعيدًا. كُنتُ سأبيعُها فى السُّوق وأطعمُ أولادى». سألَها الشيخُ: «وبكَم كُنت ستبيعينَ الكتّان؟». قالَت المرأة: «بدينار. نعيشُ به طَوال الأسبوع».

تَعجَّبَ الناسُ عنْدَما سَمعوا قصَّةَ المرأة، وقالَ الشيخُ: «إنَّها صاحبَةُ الكتان الذى كانَ سَببًا فى إنقاذنا جَميعًا منَ الغرَقَ، وَهى أحَقُّ بالمال الذى جَمَعْناه». أعطَى أصحابُ السفينة الدنانير العشرةَ للمرأة، والمرأةُ تقولُ: «هَذا كثير! عَشْرَةُ دنانير؟! الحمدُ لله، والشكْر لله».

أخيرًا ودَّعَ الرُّكابُ المرأةَ وأبناءَها، ورَكبوا السفينةَ.

تَحركَت السفينةُ عائدةً بهم إلى بلادهم، بينَما وَقَفَت المرأةُ وأولادُها علَى الشاطئ، يُلَوِّحونَ بأيديهم، ويقولون: «فى رعاية الله!».

٤٩ - المرأة التى تتكلم بالقرآن

كانَ شيخٌ منَ الصالحين اسمهُ عَبْدُ الله بنُ المبارك فى طريقه إلى مكة مَعَ إحدَى القوافلِ لأداء فريضَة الحَجّ، فرأى فى الطريق امرأةً بَدَويّةً عجوزاً تمشى وحدَها فى الصحراء، فاقتربَ منها ليسألَها، ويَعْرِفَ إلى أينَ تَذْهَبُ، فإنْ كانتْ قد ضَلّت الطريقَ أرشَدَها، وإنْ كانَتْ تَقْصدُ مَكّةَ أخَذها مَع نساء القافلَة.

قال عبدُ الله للمرأة العَجوز: «السَّلامُ عليكم ورحمةُ الله».

فقالت العجوز: ﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾. (يس ٥٨).

فقالَ عبد الله: «ماذا تَصنَعين هُنا فى هَذه الصَّحراء الموحِشَة؟».

قالت: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ (غافر ٣٣).

قال عبد الله: «إذَنْ فَأنْت تائهَةٌ. إلى أينَ أنْت ذاهبَة؟».

قالت: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ (الإسراء ١).

قال عبد الله: «إذَنْ فأنت تقصدين أداءَ فريضَة الحج؟!».

قالت العجوز: ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ (الأنبياء ٧٩).

سأل عَبدُ الله : «وكَمْ بَقيت فى هَذا المكان؟».

أجابَتْ: ﴿ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ (مريم ١٠).

قالَ: مُدَّة طَويلَة! هَلْ مَعَك طَعامٌ؟».

قالت: ﴿ هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ (الشعراء ٧٩).

قال عبد الله: «وكَيْف كُنت تَتَوضَّئين وَأنت فى هَذه الصَّحراء؟!».

قالَتْ: ﴿ فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً ﴾ (النساء ٤٣).

قالَ عبد الله: «نحنَ فى طَريقنا لأداء فَريضَة الحَجّ، هَلْ تَودّين الذَّهابَ مَعَ نِساءِ القافلة؟».

قالَت العجوز: ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ﴾ (التوبة ٩١).

قال: «قَبْلَ أنْ نَبْدأَ رِحْلَتَنا ستتناولُ بَعْضَ الطعام، فَهَل تأكُلينَ مَعَنا؟».

قالتْ: ﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ (البقرة ١٨٧).

قال: «وَلَكنَّنا لَسْنا فى شَهرِ رَمَضانَ يا خالَة!».

قالت: ﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ (البقرة ١٨٤).

ثم تَناولَ عَبْدُ الله الطَّعـامَ، واستعدَّ لمواصَلَة رحْلَته إلى مَكَّةَ. وأحْـضرَ جَمَلاً كَىْ تَرْكَبَ المرأةُ العَجوزُ. رَكِبَت المرأةُ العجوزُ الجَمَلَ وقَالَتْ:

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾

(الزخرف ١٣-١٤).

قال عبدُ الله: «هيا، أسرعِى حَتَّى نَلْحَقَ بالقَوْم».

فقالت العجوزُ: ﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ (الأنبياء ٣٧).

فقال عبد الله: «مَعْذرةً يا خَالَةُ، سأبْطئُ فى السَّيْر».

قالت: ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (التوبة ٤١).

قال عبدُ الله: «هلْ تَسْمَحينَ أنْ أردِّدَ بَعْضَ الأغانى لأشَجِّعَ الجَمَلَ عَلَى السيْر؟».

قالت: ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ (المزمل ٢٠).

قال عبدالله: «كيْف فاتَنى هَذا وَأنا فى طريقى إلى بَيْت الله الحرام؟!».

قالت المرأةُ: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً ﴾ (فاطر ٦).

قال عبد الله: «اللَّهُمَّ إنّى أسْتَعيذُ بكَ منَ الشيطان».

قالت: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنبياء ٨٨).

قال عبدُ الله فى سُرور: «يا خالَة.. لَقَدْ أدْرَكْنا القافلَةَ والحَمْدُ لله».

قالت: ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (الحديد ٢١).

وانْضَمَّت العَجوزُ إلىَ نساء القافلَة، وَواصلَتْ سَيْرَها إلىَ مَكَّةَ المكرَّمَة.

٥٠ - سعفان والشيخ الحكيم

سَعفانُ رجلٌ كسلانُ، لا يُحبُّ العَمَلَ. عاشتْ زوجتُه وأطفالُه الصِّغارُ فى جوعٍ وفقر. وكلّما شكَت زوجتُه الفقرَ والجوع قالَ لها سعفانُ: «لا تحزَنى، قريبًا سيأتى الوقتُ الذى نُصْبحُ فيه أغنياء». انتظرت الزوجةُ وانتظرَ الأطفالُ، ولكنْ لم يَحْدُث شَىء. ظلت الأسرةُ فقيرةً بائسةً، البيتُ بلا أثاثٍ ولا فرش، والمطبخُ بلا طعام، والأطفالُ بلا ملابس.

ذاتَ يوم صاحَت الزوجةُ فى غَضَب: «لا فائدةَ منَ الانتظار، إذا استمرتْ هذهِ الحالُ فسوفَ نموتُ من الجوع!».

أخيرًا قرَّرَ سعفانُ أن يسافرَ إلى أحَدِ الحُكَماء لِيسْألَهُ: «كيفَ أتخلَّصُ مِنَ الفقر، وأصبحُ مِنَ الأغنياء؟».

أعَدَّ سعفانُ كَلَّ ما يحتاجُ إليه فى رحلتِه، ثم مشَى فى طريقه.

سار سعفانُ ثلاثَةَ أيامٍ، ثم التقَى بِذئب ضعيف هزيل الجسم، يبدو عليه المرضُ الشديد. سألَ الذئبُ سعفانَ: «إلى أينَ تذْهبُ يا صَديقى؟». فأجابَ سعفانُ: «أنا ذاهبٌ إلى أحد الحكماء، أطلُبُ منه النصيحةَ كيف أصبحُ غنيًا». سمع الذئبُ كلامَ سعفان، ثم قالَ: «إذا ذهبت إلى الشيخِ الحكيمِ فاشرحْ له حالى، واسأله أن يَصفَ لى دواءً، يَشفينى مِن مَرَضى، فأنا أشعرُ بألَمٍ شديد فى المعدة منذ ثلاثِ سنوات، جعَلِنى لا أرتاحُ لَيْلاً أو نهارًا».

قال سعفانُ: «اطمئنَّ يا ذئبُ، سأخبرُ الشيخَ الحكيمَ بحالِك». ثم واصلَ سعفانُ طريقَه الطويلَ.

سار سعفانُ ثلاثَةَ أيامٍ أخرى، ثم شاهَدَ شجرةَ تُفّاح. سَألَتْ شجرةُ التفاحِ سعفانَ: «إلى أيْنَ أنتَ ذاهبٌ يا صَديقى؟». فأخبَرها سعفانُ برحلتِه إلى الشيخ الحكيم. فَقَالت شَجَرةُ التفاح: «أرجو منك أنْ تسألَ الشيخَ الحكيمَ ليَصفَ لى علاجًا لمَرضى الغريب، فعندما يأتى الربيعُ أزهِرُ مثلَ بقيةِ الأشجارِ، ولكن، إذا تفتَّحتْ أزهارى تذبلُ

فجأةً وتموت، وتتساقطُ قبلَ أن تصيرَ تُفاحًا. اطْلبْ منَ الشيخِ أنْ يَعْرِفَ السَّبَبَ ويُخبِركَ بما يَجِبُ أن أفعلَهُ.

طَمْأنَ سَعفانُ الشجرةَ، وانصرفَ. وسارَ ثلاثةَ أيامٍ، حتى وصلَ إلى بُحَيْرة عميقة. نَظَرَ سَعفانُ إلى ماء البحيرة الصافى، فأخرجتْ سمكةٌ رأسَها منَ الماءِ وسألَتْهُ: «إلى أين تَذْهَبُ يا صديقى؟».

فأخْبَرها برحلته إلى الشيخ الحكيم. قالتِ السمكةُ «أنا أشعُر بألمٍ حادٍّ فى حَلْقى. فاسألِ الشيخ أنْ يَخبِركَ بالدّواءِ الذى يَشفينى».

ابتَسمَ سعفانُ، ووَعَدَ السمكةَ أن يَسْألَ الحكيم.

مَشَى سعفانُ فى طريقه ثلاثَةَ أيامٍ، ووَصَلَ إلى بُستان مَمْلوء بأشجارِ الورد. نظَرَ سعفانُ فوجدَ شَيْخًا كَبيرَ السِّنّ يَجْلسُ تَحْتَ شَجَرة، فَحيّاهُ.

قالَ الشيخُ: «ماذا تريدُ يا سعفانُ؟». تعجّبَ سعفانُ وَسَألَ الشيخَ: «كيف عَرَفْتَ اسمى؟». أجاب الشيخُ: «أنا الحكيمُ الذى تَقْصدُهُ، أخْبِرْنى، ماذا تريد؟».

قال سعفانُ: «جئتُ أشْكو لَكَ حالى، فَمُنْذُ مَوْلدى وأنا فقيرٌ بائسٌ لا أجدُ المالَ، أريدُ أن أصْبِحَ غَنيًّا، حتى أترُكَ الكوخَ الذى أسكُنُ فيه، وأنتقِلَ إلى قصرٍ كبير، وأشترى لزوجتى وأولادى ألَذّ الطعامِ وأجمَلَ الملابس».

قال الشيخُ الحكيمُ لسعفان: «هلْ تُريدُ أنْ تَسألنى عن شيء آخر؟».

فأجاب سَعفانُ: «نَعم، قابَلْتُ فى طريقى ذئبًا مريضًا يشكو من ألَمٍ فى بَطْنه استمرَّ ثلاثَ سنوات، وقابَلْتُ شجرةَ تفاح تذبُلُ أزهارُها، وتَسقطُ أوْراقُها قَبْلَ أنْ تُثمرَ التفّاح، ورأيْتُ سَمَكَةً تقاسى ألَمًا فى حَلقِها، وطَلَبَ الثلاثةُ أنْ أبحثَ عِنْدَكَ عَنْ عِلاجٍ يَشْفيها».

اعتدَلَ الشيخُ فى جلسَته، وقالَ: «سَبَبُ ألَمِ السمكة جوهرةٌ التَصقَتْ بحلْقِها، وسينتهى الألمُ إذا خَرَجَت الجوهرة. وَشَجَرَةُ التفاحِ لا تُثمِرُ بِسَبَبِ جَرَّةٍ بها ذَهَبٌ

مَدفونة تحـتَها تَمْنَعُ الماءَ عنْ جُـذورها. أمّا الذئب فعلاجُهُ أن يأكُلَ رَجُـلاً كسولاً لا يُفيدُ أهْلَهُ ولا يَنْفَعُ الناسَ».

سألَ سَعفانُ الشيخَ عَنْ طَلَبِه، فقال الحكيمُ أمنيتُكَ تَحققَتْ يا سعفانُ، فاذهبْ.

مَشَى سعفانُ مسروراً حتى وَصَلَ إلى البـحيرة، فَوَجَدَ السمكةَ فى انتظاره. سألت السمكةُ: «بماذا ينصحُنى الحكيم؟». أجابَ سعفانُ: «هُناكَ جوهرةٌ ملتصقةٌ بحلقك، إذا خَرَجَتْ ينتهى ألَمُك!». استـعدَّ سعفانُ لينصرفَ، فصـاحت السمكةُ: «ارحَمْنى يا سعفـان وأخرج الجَوْهَرَةَ من حَلْقى، وخُذْهـا لنَفْسك». قالَ سَعفـان: «ولماذا أتْعَبُ؟ الحكيمُ وَعَدَنى أن أصـيرَ غَنيا، لا وقتَ عندى، معَ السـلامة!». تَرَكَ سَعفـانُ السمكةَ ومَشَى.

سار سـعفـانُ حتى وَصَل إلى شجـرة التّفـاح. سألَتْ شجـرةُ التفـاح: «هل عَرَفْتَ علاجى؟!». قـالَ سعفان: «هناكَ جَـرَّةٌ مملوءةٌ بالذَّهب، مدفـونةٌ فى الأرضِ تَحْتَك، تمنعُ عن جـذورك الماءَ». أرادَ سعـفانُ الانصـرافَ، فصـاحت الشجـرةُ: «أرجوكَ يا سعفانُ .. احفرِ الأرضَ، وأخرِجْ جَرّةَ الذَّهَبِ، وخُذْها لنَفْسك».

قالَ سَعفـانُ: «لَنْ أتْعبَ نَفْسى، لقد أخْبَرَنى الشيخُ الحكيمُ أنَّـنى سأحصُلُ عَلَى ما أريدُ».

تَرَكَ سعفانُ الشجرةَ الحزينةَ، واستـمرَّ فى طريقه حتَّى قابَلَ الذئبَ المريضَ. سألَهُ الذئب: «ما نصيحةُ الحكيم؟». قال سعفـانُ: «نَصيحتُهُ لَكَ أنْ تأكُلَ رَجُلاً كَسولاً، لا يُفيدُ ولا ينفعُ أحداً».

سَألَ الذئبُ سعفانَ عَمّا رآهُ فى الطّريق، فَأخبَرهُ سَعفانُ بقصتّه مَعَ السَّمكة وشجرة التفاح، ثم قالَ سعفان: «رَفَضْتُ مساعَدَتَهما، ولم أضيِّعْ وقتى مَعَهُما».

استَمَعَ الذّئب لكلام سعفانَ، وفَكَّرَ قـليلاً، ثم قالَ: «لَنْ أبحثَ عَنْ شَخص كسول لا يَنْفَعُ أحداً، أنتَ جِئتَ إلىَّ برجليْكَ يا سعفـانُ! تعالَ يا كسـلانُ لآكُلَكَ!». خافَ سعفانُ، ووثَبَ بعيداً عنِ الذّئب، وراحَ يجرى بِسرعةٍ حتَّى ابتعدَ ونَجا مِنَ الذّئب.

تعبَ سعفانُ، وَجَلَس فوقَ صَخْرة يفكِّرُ. قالَ سعفانُ فى نَفْسه: «الذئبُ عَلَى حَق، أنا كَسولٌ لا أستحقُّ الحياةَ، يجبُ أَن أرْجعَ وأساعدَ السمكةَ وشجرةَ التفاحِ» سارَ سعفانُ حَتَّى وصَلَ إلى البُحَيرة، ونادَى السمكةَ فأطَلَّت برأسها من الماء، وسألتْ سَعفانَ: «لماذا رَجَعْتَ إلى هُنا؟».قالَ سعفانُ: «جئتُ أخَلِّصُك منَ الألم، افتحى فَمَك». فتحت السمكةُ فَمَها، ومَدَّ سعفانُ أصابعَهُ وأخرجَ الجوهرةَ الملتَصقَةَ بحلقَها». فرِحَت السمكةُ، وشكرتْ سعفان، وقالَتْ له: «خُذْ هذه الجوهرةَ هديةً لَكَ».

قال سعفانُ: «لا، لَنْ آخُذَ الجوهرةَ، لا أريدُ أنْ أصبحَ غنيا مِنْ غَيْرِ عَمَل أو تَعَب». ثم رمَى سعفانُ الجوهرةَ فى البحيرة، وانْصَرَفَ.

توجَّهَ سعفانُ إلى شجرة التّفاحِ فتعجَّبَتْ، وسألتْه: «لماذا رَجَعْتَ إلىَّ؟!». قالَ سعفانُ: «جئتُ لأخرِجَ الجرَّةَ التى تمنَعُ عن جُذورك الماءَ». حفَرَ سعفانُ، وأخرَجَ الجرَّة. شعَرَت الشجرةُ بالماء يروى جذورَها فانتعشَتْ ، وقالت: «شكراً لك يا سعفانُ، خُذْ هذا الذّهبَ لنفسك لتصبح غنيًا». قالَ سعفانُ: «لا يا صديقتى، أنا لم أعملْ أو أتعبْ، لأحصُلَ عَلَى هَذَا الذَّهَبِ، سأوزِّعُهُ عَلَى الفُقَراء والمساكين..».

سارَ سعفانُ نحوَ قريته، وفى الطريقِ كان يوزِّع الذّهبَ على الفقراء والمحتاجين.

أخيرًا، وَصَلَ سعفانُ إلى كوخه، فوجَدَ زوجتَه وأولادَهُ فى انتظاره.

سَألَتْهُ زوجتُه: «هَلْ أخبركَ الشيخُ الحكيمُ كيفَ تُصْبِحُ غنيا؟».

قالَ سعفانُ: «نعم يا زَوْجتى، يجب أنْ أكدَّ وأعمَلَ باجتهاد، وأتْقنَ عملى، وأفيد الناسَ والمجتمَع، واللهُ يرزقُنى كما يَشاء».

تركَ سعفانُ الكسلَ والإهمالَ، وبدأ يزرعُ الأرضَ التى أمامَ كوخهِ بهِمّةٍ ونشاط، وكانَ يبيعُ المحصولَ، ويحصُلُ على المال، وينفق عَلَى أهله.

وبعدَ سنواتٍ صارَتْ عِندَهُ مَزْرَعَةٌ كبيرةٌ، وأصبحَ مِنَ الأغنياء.

فهرس الكتاب

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطى شبرا القاهرة
الرقم البريدى — ١١٢٣١

أحلى الحكايات



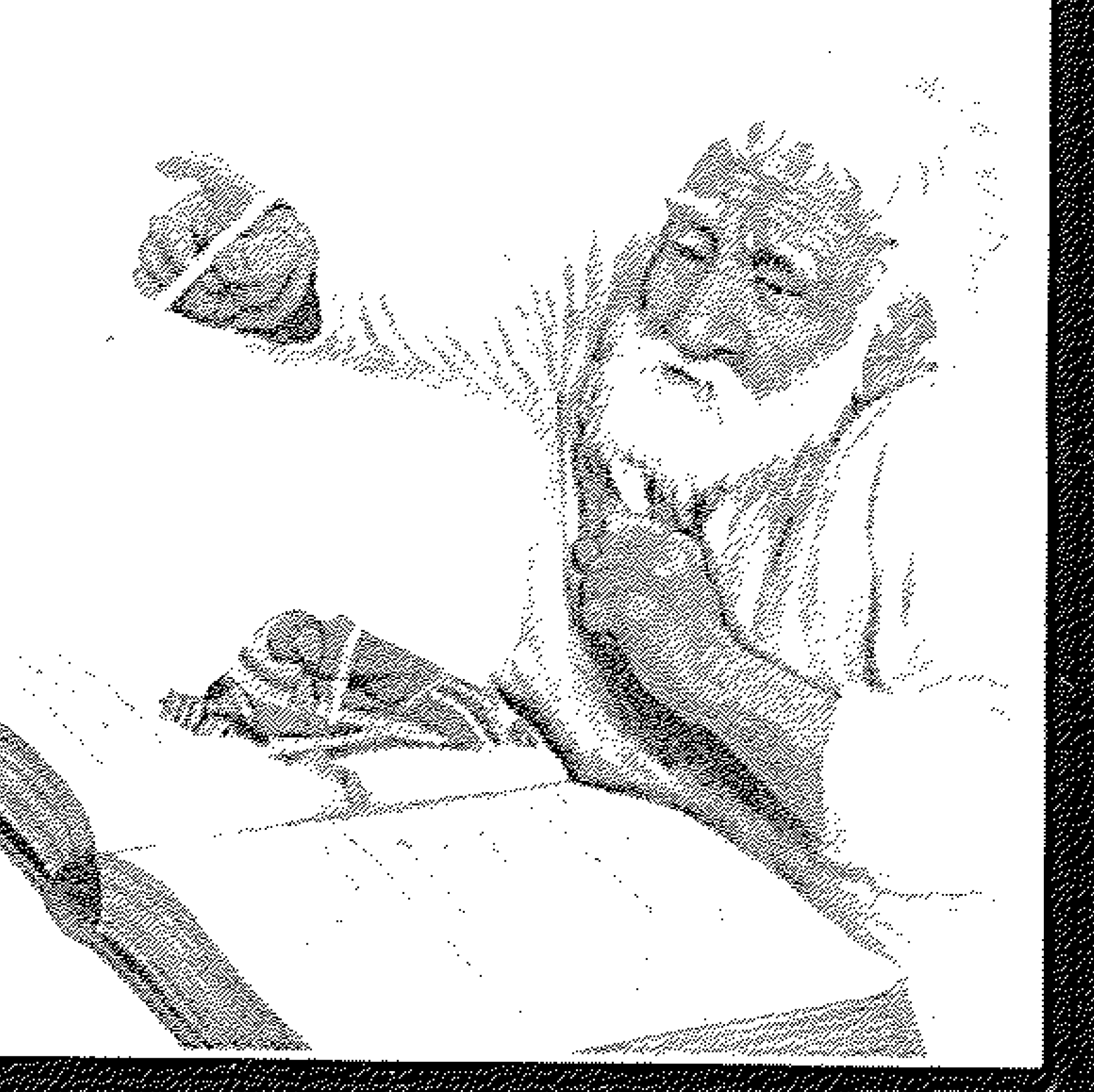
50 قصة ميسَّرة للأطفال

يحتوى هذا الكتاب على خمسين من أروع قصص التراث العربية والإسلامية، صيغت بأسلوب ميسر حتى يفهمها اطفالنا عندما يسمعونها أويعتمدون على انفسهم فى قراءتها واستنباط العبر منها.

ومما تشمله هذه المجموعة القصصية سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، والصحابة. رضي الله عنهم. والخلفاء والعلماء والقواد. وهي تتضمن كذلك طائفة من قصص الأمثال الشائعة، وغيرها من القصص التي تزخر بالحكم والفضائل، حتى يقتدي بها الأطفال، وتكون نبراساً لهم في مستقبل حياتهم.

من عناوين هذة السلسلة:

- 100 قصة ميسرة للأطفال.
- 50 قصة عربية إسلامية ميسرة للأطفال.
- حكايات تمثيلية للأطفال.







ISBN 977-5875-66-8
90000
9 789775 875662